٢٨٨

HARLEQUIN

روايات احلام

ضاعت العروس

لوسي غوردون

www.elromancia.com
مرمورية

ضاعت العروس

«المطلوب صائد ثروات للزواج من وريثة ثروة ضخمة. مليونيرة تبحث عن زوج بالاسم كي تتحكم بثروتها الخاصة. الشروط مغرية للرجل المناسب».

إعلان في الصحيفة

ووصل الردّ إلى ميريل وينترز بسرعة:

«القصر ينهار. التشققات في كل مكان والأغراض الأساسية تنفذ المطلوب وريثة غنية على جناح السرعة».

اللورد جارفيس لارن

لن تلوم ميريل إلا نفسها على هذا الإعلان، فهي التي جلبت لنفسها المتاعب... ووجع القلب!

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١,٥ دينار	مصر: ٧ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-136-9

لوسي غوردون

بدأت لوسي غوردون عملها في مضمار الكتابة، ككاتبة صحفية في عدة مجلات. أجرت مقابلات مع أكثر الرجال شهرة في العالم بمن فيهم «ورن بتي»، «ريتشرد تشامبرلين»، «روجر مور»، سير «أليك غينيس» وسير «جون غيلغاد». واختبرت في رحلة سفاري إلى إفريقيا، الحياة في العراء مع الأسود، كما عاشت مغامرات غريبة كثيرة شكلت خلفية غنية لرواياتها.

تزوجت من إيطالي التقته في عطلة كانت تقضيها في فنيسيا. عقدا خطبتهما بعد يومين على اللقاء وهما متزوجان منذ خمسٍ وعشرين سنة. يقيمان الآن في «ميدلاندز» مع كلابهما الثلاثة.

نال كتابها His Brother's Child، جائزة الكتّاب الروائيين الأميركيين سنة ١٩٩٨، في فئة أفضل رواية عاطفية تقليدية.

١ ـ عنيدة ومتهورة

اعتادت «ميريل وينترز» قيادة سيارتها في العديد من مدن العالم الكبرى بكلّ ثقة وحبور، لكنها أكثر ما أجادت القيادة في نيويورك، مسقط رأسها.

ما إن فتحت المصارف أبوابها حتى انطلقت بسيارتها الحمراء المكشوفة من شارع «برودواي» إلى «وول ستريت»، وأوقفتها فجأة، متجاهلة إشارة «ممنوع الوقوف» وترجّلت منها بخفة وسرعة. رمت المفتاح إلى البوّاب ودخلت بسرعة إلى المبنى الرئيسي لمصرف لوماكس غريوسون. في تلك الأثناء، وبينما كان البوّاب يصعد إلى السيارة، اقترب منه شرطي السيّر يمنعه من ايقاف السيارة في ذلك المكان. وفي الحال قال البواب المذعور معترضاً: «إنها سيّارة الآنسة وينترز».

عندما سمع شرطي السير اسم المالكة ابتعد عن السيارة دون أن يقول شيئاً.

دخلت البنك، تحثّ الخطى في الأروقة الرخامية، عالمة أن جميع الأنظار مسلطة عليها. . إنها موضع اهتمام الآخرين منذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها إذ مات والدها تاركاً لها ثروة مالية طائلة ومنذ أن شبت أخذت تجذب الانتباه، بقامتها المديدة وجسمها النحيل الذي تحسدها عليه عارضات الأزياء وساقيها الرشيقتين وعينيها الخضراوين وشعرها الأسود الطويل. إدارة الرؤوس، رؤوس الرجال، ذاك ما كان يُعجبها، وإعجاب الرجال بها كان أحد الأمور الممتعة في حياتها.

لكن أفكارها في تلك اللحظة كانت في وادٍ آخر. . .

كان مزاجها متعكراً بحيث أنها قد تقتل أحداً. . اتجهت رأساً إلى مكتب

الرئيس دون أن تلتفت يميناً وشمالاً.

كانت السكرتيرة حديثة العهد بالعمل ولم تعرف «ميريل»، الا أنه خامرها شعور بالرهبة والخوف من هذه الشابة الواثقة من نفسها والمتفجّرة غضباً، ورغم ذلك جازفت بالقول: «إن.. إنّ السيد ريفرز مشغول للغاية. هل أنت على موعد معه؟».

تساءلت ميريل بدهشة: «ولم الحاجة إلى تحديد موعد لمقابلته؟ فهو عرّابي والقيّم على امواليّ. أضيفي إلى ذلك أن هناك ما أودّ أن أحدّثه بشأنه».

ـ حسناً، لكنك لا تستطيعين...

لم تكمل السكرتيرة كلامها، فميريل التي لم تعرف كلمة لا، لم تُعرها أذناً صاغية وفتحت باب المكتب على مصراعيه ووقفت على العتبة تتأمل الرجل الجالس في الداخل؛ وكأنها وجدت منالها.. خاطبته بصوت أنثوي ناعم قائلة: «ها قد وجدتك أخيراً؟».

لورس ريفرز رجل ضخم كبير في السّن، نهض من خلف مكتبه وابتسم بلطفه المعهود قائلاً: «ماذا أرى؟ عزيزتي ميريل؟ يا للمفاجأة السارّة!».

رفعتْ أحد حاجبيها الأسودين الرائعين وقالت: «أيعقل أن يفاجئك حضوري إلى هنا بعد رسالتك الفظيعة؟ لا أعتقد ذلك. ألم أقل لك مراراً يا لاري ألا تتدخل في شؤوني الخاصة؟».

عاجلها بالردّ: «ألم أقل لكِ مراراً إن التصرف بمبالغ كبيرة من الأموال وتحويلها إلى أشخاص آخرين ليس من شؤونك الخاصة أيضاً؟».

ـ لست طفلة، فأنا في الرابعة والعشرين من عمري و...

ـ وإلى أن تبلغي السابعة والعشرين من العمر يمكنني منعك من تبذير أموالك ورميها هنا وهناك وكأنها قطعة ثياب بالية تريدين التخلّص منها. حسناً فعل والدك، حين كتب تلك الوصية.

قالت بسخرية: «كان أبي واقعاً تحت تأثيرك حينئذٍ والا لما وردت في ذهنه هذه الفكرة أبداً».

ـ أنت محقة. كان «كرادوك وينترز» ملمّاً بكل شيء يتعلّق بآبار النفط

والماكينات في حين أنه لم يكن دارياً بالأمور الأخرى بما فيها تلك المتعلقة بابنته. كنتِ فتاة عنيدة حتى في الخامسة عشرة من عمرك، ولم تنضجي حتى الآن، وأكبر برهان على ذلك رغبتك في تبديد عشرة ملايين من الدولارات وصرفها على رجل غير ذي أهمية ولا يستحقها «كبندكت ستين»، وهذا يزيدني اقتناعاً بأنني كنت محقاً في العمل على حمايتك وصون أموالك.

ـ ليس «بندكت» بالرجل الذي لا أهمية له، النكرة...

قاطعها بلهجة الواثق من رأيه: «أعرف ما هو رأيي بشخص أمضى حياته في صنع الثياب النسائية».

قالت بغضب: «هو لا يصنع ثياباً نسائية، بل يصمّم أزياء بالغة الأناقة والذوق. وهو بحاجة إلى من يدعمه ويرفعه إلى أعلى المراتب. لن يكون ذلك تبديداً للمال بل استثماراً تجارياً ناجحاً».

تساءل مستفهماً: «أتسمّين صرف عشرة ملايين من الدولارات على محل للثياب النسائية استثماراً تجارياً ناجحاً؟».

ـ ليس مجرّد محل أو دكان؛ فما يحتاج له بندكت هو مبنى مناسب...

ـ لا شك أنه يعمل في مكان ما؛ أليس كذلك؟

ـ أجل؛ يملك غرفة قديمة في شارع فرعي. ولكني أودّ أن أراه وهو يعمل في محل لائق، أي وسط «منهاتن» حيث يمكنه عرض مجموعة كبيرة من تصاميمه وجذب زبائن من مختلف أنحاء العالم.

ـ عشرة ملايين دولار؟!!

كرر لاري المبلغ وكأنه يحاول إفهامها استحالة الأمر.

أوضحت قائلة: «إنه بحاجة إلى أن يعرض تصاميمه في باريس وميلانو ولندن ونيويورك. كما يحتاج إلى موظفين ومستخدمين، بالإضافة إلى هذا، لا بدّ من نشر دعايات وإعلانات تجارية في كبريات الصحف والمجلات المتخصصة في حقل الأزياء؛ وكل هذه الأشياء تكلّف الكثير من المال».

ـ عشرة ملايين من الدولارات!

هزّت كتفيها قائلة ببرودة: «أريد أن أقوم بواجبي وبما أتعهد به كما

يجب».

ـ ومتى ستستردّين المبلغ؟

قالت له من غير تحفّظ أو وجل: «ومن يبالي بهذا الأمر؟».

ـ وأخيراً نطقتِ بالحقيقة.

ـ لقد حُسم الأمر، أليس كذلك؟ حسناً، فلنقل إن الأمر سيكون ممتعاً. وما الخطب في ذلك؟ لديّ المال الكافي لأموّل المشروع.

ـ لن تحصلي على مبلغ كهذا، ولن أدع أيّ رجل فاتن ومحتال مثل بندكت ستين يقوم باستغلالك ويوقعك في أحابيله. أعرف تماماً سبب افتتانك به، فهو وسيم.

كانت أنفاسها تنفث ناراً وهي تقول: «عبثاً أقول لك؛ وقد سبق أن ردّدت مراراً بأنني لست مغرمة به، ولا تنسَ أنه رجل متزوج».

ـ متزوج بامرأة في طريقه إلى الطلاق منها. أخاف أن أصحو ذات صباح وأقرأ خبر خطوبتكما في صحيفة نيويورك تايمز.

توقفت ميريل عند هذا الموضوع وقالت: «حسناً، إذا تزوجته، وليس في نيتي ذلك، فستضطر أنت لتسليمي الأموال العائدة إليّ. وعليك الرضوخ لهذا الأمر بغض النظر عن اسم الرجل الذي سأتزوجه».

ـ هل وقع اختيارك على عريس معيّن؟

ـ لا، ولكن مهما يكن هذا الشخص فسأحصل على مالي. أحذّرك يا لاري وأقول لك إني أريد أن تتحرّر أموالي من قبضتك. وأقسم بأنني سأتزوج أول أعزب تقع عيناي عليه. هل هذا واضح؟

ـ بالتأكيد يا عزيزتي. والآن دعيني أكون واضحاً وصريحاً معك بدوري. لن تستطيعي.. وأكرّر.. لن تستطيعي حملي على هدر عشرة ملايين من الدولارات على هذا المشروع الوهمي. ولن أقول المزيد.

تطلّعت إليه لبعض الوقت بعينين يكمن فيهما الغضب ولكن عندما لم تر أي ليونة على وجهه؛ أخذت تهدده قائلة: «لم ينته الحديث بيننا وسوف تسمع عن نهايته قريباً».

ثم ما لبثت أن خرجت من الغرفة والغضب يتآكلها. لو قدّر للاري رؤية ميريل بعد ساعة من الزمن وهي تقف كموديل في حجرة العمل التي يملكها بندكت، لأدرك أنّ شكوكه كانت في محلّها خاصة أن بندكت كان يدعوها بين الفينة والأخرى «عزيزتي». إلا أن لاري لم يكن رجلاً متبصراً بالامور ودقيق الملاحظة، وما كان ليلاحظ أنّ بندكت يلمسها بيدين مجرّدتين من العاطفة، كيدي طبيب، كما أن كلماته المعسولة ومناجاته لها لم تكن مقصودة بل يقولها بطريقة آلية حيث اعتاد أن ينادي كل امرأة عزيزتي.

كانت ميريل ملهمته وراعيته منذ كانا في الرابعة عشرة من العمر، حيث التقاها في مدرسة داخلية لاولاد الأثرياء. كان حينئذٍ ابن البستاني وقد وقفت تحامي عنه ضد من يستضعفه ومن بعدها استمرت في الذود عنه وحمايته. تنهدت وهي تقول له: «وكأنك تتكلم مع حائط مسدود. لطالما أعدت على مسمعه أنني لست مغرمة بك، فلمَ لا يصدقني؟».

ـ لعلّه سمع عن سحري الذي لا تستطيع النساء مقاومته.

ثم جعلها تستدير قليلاً، وأضاف: «ارفعي ذراعك يا حبيبتي كي أتمكن من وضع الدبابيس هنا».

وفعلت ما طلبه مراقبة عمله وقد بدأ تصميمه الرائع يظهر للحياة. ها قد استكانت ثورة غضبها أما روحها المرحة الكامنة في داخلها والتي لم تفارقها طويلاً فقد عادت إليها من جديد.

توفيت والدتها عندما كانت في السادسة من عمرها، وبعد ذلك تولّى والدها رعايتها. تاجر النفط هذا كان رجلاً عصامياً، بنى ثروته بنفسه. ولم يبخل بشيء على ابنته التي اعتبرها هديّة منزلة من السماء.. تساهل في معاملته معها وبالغ في تدليلها، الا أنه نادراً ما كان يراها لضيق وقته. تركها بعد وفاته فتاة فاحشة الثراء ووحيدة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان. كانت وحدتها قاسية وموحشة.

لم تنكر تمتّعها بما أنعم الله عليها من جمال وثراء؛ ولعلّها لم تكن لتشعر بوجود القيم الأخرى لولا قلبها الرقيق بالفطرة. صحيح أنها مزاجية وبركان

غضبها على استعداد دائم للتأجج بسرعة، لكن روحها المشاكسة والمحبة للمرح والدعابة قوّضت طبعها الحادّ هذا. فقدرتها على أن تضحك حتى على نفسها هي إحدى مفاتنها التي فاقت صفة الجمال لديها. لا أحد يعرف من الذي أورثها هذه الموهبة؛ فوالدتها كانت سيدة هادئة، لطيفة وكئيبة؛ أمّا الشاغل الأكبر لوالدها فقد كان جمع المال لذا لم تتسع حياته ولو لفسحة صغيرة من الضحك والمرح. اذن لم تكن روحها المرحة سجية موروثة، ولم يخطر ببال أحد أن ذلك قد يكون نوعاً من الدفاع.

بعد ثورتها العارمة في المصرف وخروجها منه غاضبة، ذهبت لمقابلة بندكت وقد شعر كلاهما بالغيظ والحنق إلى أن ردّدت عبارة لاري (ليس بندكت سوى صانع ألبسة نسائية) فثارت حفيظة بندكت، وهذا ما جعل ميريل تضحك.

وعندما سألته: «وما هو تأثير سحرك القاتل على أمندا في هذه الأيام؟».

ردّ بحدّة: «لا تأتي على ذكر اسم هذه المرأة أمامي؛ إقدامي على الزواج بها كان أفظع غلطة ارتكبتها في حياتي؛ واتخاذي القرار بالرحيل عنها كان الأفضل».

ـ عجباً! أنت من يقول هذا؟ هي التي طردتك من حياتها. فقد أخبرني جيرانك أنهم لم يستطيعوا النوم بسبب الضجة العالية التي أحدثتها وأنت تقرع الباب بشدة راجياً إياها أن تسمح لك بالدخول.

ـ أكاذيب؛ كلها أكاذيب.

ـ دعني أذكّرك أيضاً بأنك اتصلت بها من شقتي إلا أنها أقفلت السماعة ما إن سمعت صوتك.

طلب منها أن تغيّر مجرى الموضوع: «رجاءً لا تفسدي مزاجي عندما أثبّت الثوب بالدبابيس».

ـ لن أكف عن هذا الحديث إذا كنتَ تريد الحصول على عشرة ملايين من الدولارات.

سألها بلهجة متبرّمة وكأنه يعرف مسبقاً الجواب: «لن أحصل على المال إذن، أليس كذلك؟ ليس قبل أن تبلغي عامك السابع والعشرين. ولن أحصل عليه حتى وإن بلغت ذلك العمر لأن لاري ريفرز سيتدخّل بالأمر».

ـ لن يفعل ذلك. سيكون لي الصلاحية الكاملة للتصرّف في أموالي كيفما أشاء بدءاً من يوم ميلادي السابع والعشرين إلا إذا تزوّجت قبل ذلك. لكنني سأنفجر إذا استمريت على هذا المنوال ثلاث سنوات أخرى. لقد طفح الكيل ولم أعد أتحمل لاري وهو يتحكّم بالطريقة التي أعيش فيها.

ـ أنت مخطئة؛ فهو لا يسيّر حياتك كما يريد. فلديك تلك الشقة في سنترال بارك وشقة أخرى في لوس أنجلس؛ وأنت تصرفين أموالاً طائلة على الثياب والسيارات وهو يوقّع على الفواتير ويسدّد الحساب دون جدال.

ـ لكنه يستطيع منعي والوقوف في وجهي إذا أردت الحصول على مبلغ كبير من المال. سأغيّر هذا الوضع حتى لو اضطررت إلى جذب أي رجل من الشارع والزواج به.

ـ الرجال يلهثون وراءك بالعشرات. أليس بينهم رجل مناسب يفي بالغرض؟

ـ لا؛ يجب أن يكون غريباً بعيداً عن دائرة معارفي حيث يمكنه تأدية مهمته ومن ثم الاختفاء من حياتي.

ضحك «بندكت» وهو يقول: «لمَ لا تضعين إعلاناً في الصحف؟».

ما لبث أن تمنّى لو لزم الصمت لأنّ ميريل التفتت نحوه بسرعة وبعينين مشرقتين وقالت: «يا لك من عبقري يا بندكت! سأقوم بتنفيذ هذه الفكرة حالاً».

***

في مكان آخر كان فيردي أشتون، يقول لجارفيس أو اللورد لارن: «هناك خطب ما في قهوتك هذه».

قال هذا وهو ينظر إلى أسفل الفنجان.. رفع جارفيس رأسه عن

المكتب حيث كان منكباً على العمل وسأل فيردي والتكشيرة تعلو وجهه: «أهناك خطب ما في هذا الفنجان؟».

أجاب فيردي متأففاً: «إنها تختفي باستمرار. أقسم بأن الفنجان كان مليئاً منذ لحظة وكذلك الأمر بالنسبة إلى الركوة. تعال وانظر بنفسك».

لان وجه جارڤيس الحاد الملامح بعض الشيء وقال مبتسماً: «اذهب واعدّ ركوة أخرى لأنني لن أطلب من أحد أن يعدّها».

تطلع فيردي حوله في المكتبة التابعة لقصر لارن وكأن بحثه هذا سيجلب له قهوة. ومن خلف الستائر السميكة، اهتزّ الشباك قليلاً بعدما لفحته الريح المسائية، ومع أنه أغلق بإحكام أو على الأقل قدر الإمكان، لم يصمد هو أو أي شباك في المبنى أمام التيار الهوائي. كان مبنى قديماً تمّ بناؤه قبل ثمانية قرون، وكان بحاجة ماسة إلى الإصلاحات اللازمة حتى يتمكن من الصمود في وجه الرياح العاتية. وفي هذه اللحظات كانت نيران إحدى تلك المواقد مشتعلة ملقية وهجاً أحمر فوق الكليين الممدّدين على سجادة بالية.

بالقرب منهما جلس مالكهما، بثيابه البالية أيضاً رغم لقبه الارستقراطي العريق. بدا بنطاله القطني المضلّع قديماً، وكأنه اعتاد ارتداؤه باستمرار للقيام بالأعمال الريفية الشاقة؛ وكان هذا هو واقع الحال. أمّا السترة التي كان يرتديها فوق البنطال فيمكن القول إنه اشتراها بثمن غالٍ من محل راقٍ ولكن الزمن دار بها وأنزلها إلى أدنى المراتب.

كان رجلاً طويل القامة، قوي الجسم، عريض المنكبين ولكنه نحيل الوجه؛ وله عينان داكنتان تشتعلان بنار الغضب سريعاً وله أنف معقوف قليلاً. وكان هذا الأنف خير دليل على حدّة انفعاله التي عرف بها والتي توقع في النفوس الرعب والخوف. إنه لا يطلق العنان لانفعالاته إلاّ من حين إلى آخر ليصبّ جام غضبه على هذا العالم المفتقر إلى العدالة خاصة عندما يجد إرثه العريق مهدّداً.

بيد أنّ كل مظاهر الغضب والعنف لديه تتلاشى بسبب رقة مشاعره؛

وبدلاً من أن تجده عنيفاً تراه متسامحاً غفوراً. أما بالنسبة إلى فيردي آشتون، فقد كان شعور جارڤيس نحوه مزيجاً من التسامح والسخط، وولعه به لم يخفّ مطلقاً مما كان مدعاة للحيرة والعجب.

لأن كلّ من رآهما معاً كان يتساءل: ما الذي يجمع بين رجل جادّ متزمت مثل جارڤيس وبين شخص متهور عديم المسؤولية كفيردي؟ كانا مختلفين في المظهر أيضاً: ففيما كان فيردي نحيفاً، ذا بنية ضعيفة، كان جارڤيس ضخم الجثة؛ وفيما كان صوت فيردي رقيقاً، كان صوت جارڤيس طنّاناً رنّاناً.

بدأت صداقتهما منذ أيام الدراسة وكانا متقاربين في السنّ إلا أن فيردي بدا اصغر سناً بمظهره الصبياني وطريقة تصرفه الرعناء، ومع أن فيردي رسام موهوب، إلا أنه لم يستغل موهبته إلا عندما تتفتق لديه القريحة والسبب كسله؛ إذ لم ينظر إلى الحياة بمنظار الجدّ وقامت حياته على المزاح والهزال.

كان فيردي يعاتب صديقه ويقول له نادباً حظه: «يا لك من رجل قاس عديم الشفقة يا جارڤيس لارن! أليس لديك شيء في هذا القصر؟».

ـ أنا معدم الحال؛ لا أنكر ذلك.

تناهى اليهما صوت شابة جميلة الملامح يقول عن الدرج: «لم تكن لتصل بك الحال إلى هذا الحدّ لو لم تسمح لبعض المتسكعين والطفيليين بالإقامة في بيوتك دون أن يدفعوا الإيجار».

كانت تتكلم باستهجان واستنكار. فتأملّها فيردي ملياً وقال لها بتهكم: «أختي العزيزة، إذا كنت أنا المقصود، أكون شاكراً لك لو وفّرت على نفسك هذا الكلام. سبق لي ولجارڤيس أن حسمنا أمر الإيجار».

ـ أعلم أنكما حسمتما الأمر، ولكن متى دفعت له الإيجار آخر مرّة؟

ـ لا تجادلي في أمور تافهة. أدفع لقاء سكني لا نقداً بل معنوياً، أي بتمتّعه بصحبتي.

صاحت بازدراء ودهشة: «سأرى إن كان جارڤيس سيقدر على دفع

فواتيره من تمتعه بصحبتك».

أشار عليها جارڤيس بالقول: «دعيه وشأنه يا سارة، فأنت تعلمين كم هو عنيد ولا سبيل إلى إصلاحه».

ـ لولا تشجيعك له لاختلف الأمر.

لم يمهلها فيردي بل قال على الفور: «لا، لم يكن الأمر يختلف، فلقد ولدت على هذا النحو وليس باستطاعة أي شخص تغييري».

ثم اتجه إلى الركن المخصص بالكتب ليتفحص محتوياته. ولكن في طريقه علق كعب رجله بالسجادة البالية وكاد يقع على الاريكة... أسرع يتمسك بالاريكة ليقف بشكل ثابت ولكنه سمع صوت تمزّق قماش الأريكة البالي فانقبض صدره. وقال بصوت عالٍ وكأنما اكتشف شيئاً لتوّه: «لقد ثقبت أريكتك».

هزّ جاڤيس كتفه دون مبالاة وقال: «لن أستطيع أن أفرّق بينها وبين بقية الأرائك».

ـ هل تعلم ما هو الحلّ يا رجل؟

ـ إحضار كرسي جديد ربما.

ـ بل زوجة ثرية.

عادت الابتسامة تلوح على وجه جارڤيس وقال: «بالتأكيد؛ فالنساء الثريات يناشدنني للزواج بي، أليس كذلك؟».

ـ هذا هو واقع الحال.

وتناول فيردي الصحيفة التي كان يقرأها قبل دقيقة وقال لجارڤيس وهو يشير بإصبعه إلى إعلان فيها: «اقرأ هذا الإعلان».

أخذ جارڤيس الصحيفة وقرأ الإعلان التالي: «المطلوب صائد ثروات للزواج من وريثة ثروة ضخمة. مليونيرة تبحث عن زوج بالاسم فقط كي تتحكم بثروتها الخاصة. الشروط مغرية للرجل المناسب».

ردّ الجريدة بسرعة إلى فيردي ودمدم قائلاً: «ربما خطر ببال أحدهم أن يمزح بهذه الطريقة. إما أن يكون الامر كذلك وإما أن يكون صحفي وراء

الاعلان. لا بدّ أنك مخبول إذا خيّل إليك بأنني سأعرّض نفسي للسخرية».

ـ ولكن افترض أن المسألة جادة فلما تفوّت عليك هذه الفرصة؟

ـ لسبب واحد هو أنني لا أملك شيئاً أقدمّه للمليونيرة...

قاطعه فيردي بلهجة ساخرة: «هراء. فأنت رجل وسيم ومستقيم وحلم أي فتاة».

أجابه جارڤيس دونما حقد أو ضغينة: «وأنت مبتذل ودنيء وحالك ميؤوس منها».

أضافت سارة بلهجة لاذعة: «أوافقك الرأي».

تابع جارڤيس قائلاً: «وهناك أمر آخر؛ لن أقوم بعرض نفسي على امرأة غنية وأتزوجها اسمياً دونما سبب غير الاستيلاء على مالها».

قالت سارة موافقة: «تماماً».

نزلت الدرج وأشارت إلى صورة كبيرة معلقة فوق الموقد، ثم سألته: «ماذا كان سيقول جدّك لو كان هنا؟ سأجيبك حالاً. لكان ذكّرك بشعار عائلة لارن قائلاً: «فليرتعد الغزاة» ولسارع إلى طرد هذه المرأة على الفور».

قال أخوها بخبث ومكر: «لكنه كان سيقيم معها علاقة أولاً».

قالت بسرعة وحدّة: «فيردي!».

ـ حسناً، إنها الحقيقة. كان زير نساء، سبق أن أخبرني أبي بأن لا عائلة في هذه النواحي إلا ولديها ابن غير شرعي للارن...

ابتسم جارڤيس قائلاً: «هذا يكفي، فقد صدمت سارة».

تناولت الصحيفة وقالت: «إن لم يكن وراء الاعلان أحد الصحفيين بل امرأة بالفعل، فهذا يعني أنها تفتقد كل معاني اللياقة».

وافقها جارڤيس الرأي بالقول: «ليست بالتأكيد امرأة يهمني التعرّف إليها».

أنّبه فيردي قائلاً: «يا لك من رجل متزمّت!».

أومأ جارڤيس برأسه وقال: «أخشى القول إنك على حق. لا تقلق.. سوف أصون ممتلكاتي وأحافظ عليها ولكن بطريقتي الخاصة».

www.elromancia.com

وسأله فيردي: «كيف؟».

تنهّد جارڤيس ولم يقل شيئاً.

بعد دقائق قليلة، استأذنت سارة جارڤيس في التحدّث اليه على انفراد وسرعان ما رافقها إلى خارج الغرفة بكلّ طيبة خاطر. تمكّن فيردي من سماع أصواتهما المنخفضة من خلال الباب؛ وتمتم وهو وحده في الغرفة: «ما هذا الذي تريدين التحدّث عنه يا سارة؟ تريدين إسداء النصح له بشأن بعض التفاهات؟ انك تضيعين الوقت مهما كانت الذرائع التي تتحججين بها. لقد أعطيت جارڤيس مئات الفرص كي يطلب يدك للزواج ولم يستغلّ أي واحدة منها. فأنتِ بمثابة أخت له، وهذا يسرّني لأنه لا يناسبني أبداً أن تكوني صاحبة المكان».

تأمّل ما حوله وتنهّد، ثم علت وجهه ابتسامة خبيثة قبل أن يتجه نحو المكتب ويسرق ورقتين لكتابة الرسائل تخصّان جارڤيس وعليها اسم مقاطعته؛ وبعدها جلس قرب الموقد يترقّب عودة جارڤيس واخته.

* * *

كانت ميريل مع بندكت عندما سألته: «أين تقع يوركشاير بالضبط؟».

ـ كلّ ما أعرف أنها في انكلترا. لماذا؟

ضحكت وقالت: «إنها المكان الذي يقطن فيه زوج المستقبل».

ـ هل تعنين أنك تلقيت ردّاً؟

ـ وصلني الردّ هذا الصباح.

ثم تثاءبت واستندت إلى يد أريكة بندكت الضخمة المصنوعة من الجلد.

ـ لا بدّ أنك تمزحين! ومن يكون؟

ـ يدعى جارڤيس لارن... إنه لورد ويعيش في قصر عائلة لارن في يوركشاير.

تناول بندكت الرسالة من يدها، وأنعم النظر فيها بمرح وأشار إلى ما كتب فيها قائلاً: «إنه صريح بشأن فقره. اسمعي ما يقول: القصر ينهار.

والتشققات موجودة في كل مكان والأغراض الأساسية تتناقص وتنفد والمطلوب وريثة غنية على جناح السرعة».

ـ إنها دعابة. أراهن أنه ليس موجوداً على وجه الأرض.

لم تتوقع كلامه حينما قال: «بل هو موجود. لقد قرأت الاسم في كتاب يحتوي على أسماء النبلاء الإنكليزيين. اشتريته حين التقيت زبوناً يملك لقباً نبيلاً والكتاب هنا على الطاولة».

ناولته إياه وبدأ يفتح الصفحات بسرعة إلى أن توقف عند احداها، وقال: «ها هي، الفيكونت لارن صاحب قصر لارن. رباه! إنه صاحب نسب عريق بالفعل».

وأخذ يقرأ بصوت عال: «جارڤيس، اللورد لارن الڤيكونت الثاني والعشرون.. العمر ثلاث وثلاثون سنة.. ورث اللقب حين كان في الحادية والعشرين من العمر. تخيّلي أن يكون المرء لورداً في هذا العمر الصغير، هذا عدا عن ذلك الحديث المتعلق بحقوق رجال الاقطاع».

ـ ماذا تقول؟

ـ الحق القديم الذي يعود إلى زمن رجال الإقطاع والذي يسمح للورد بأن يحظى بأي عذراء في ممتلكاته.

ـ لقد اختلقت هذا الخبر!

ـ لا أبداً. إنّه تقليد قديم وقد جرت العادة على أن ينتقي السيد ما يحلو له من العذارى. وهذا التقليد يعود إلى قرون بعيدة. لهذا السبب نجد العاملين في هذه الممتلكات يشبهون بعضهم البعض. عندما تهبينه طفلاً فلن يكون بمقدورك أن تميّزيه عن الآخرين.

ـ لا تكن سخيفاً. بكلّ تأكيد لن أتزوج به. لقد نشرت هذا الاعلان في الصحيفة بسبب غضبي الشديد من لاري، ولكن فورة غضبي زالت الآن.

تنهّد بندكت وقال: «وداعاً للعشرة ملايين دولار».

لكنها صارحته بابتهاج المنتصر: «لا لقد حللت هذه المسألة.. سأحصل على قرض مصرفي، فمصرف لوماكس غريوسون ليس المصرف

www.elromancia.com

الوحيد في نيويورك وسيرحّب أي مصرف آخر بالتعامل معي».

- فليباركك الله. لِمَ لَمْ تخبريني بذلك؟

- كنت انتظر مكالمة هاتفية لمنحي القرض، ولكنها مجرّد شكليّات، وعندما يدق جرس الهاتف، فستحصل على المال!

وما إن قالت هذه الكلمات حتى دق الهاتف الخليوي فتلقفته بيديها وغمزت بندكت بعينها بسرور ولكنه سرعان ما رأى ابتسامتها تختفي ونظرة من الغضب الشديد تحلّ مكانها. وعندما تكلّمت اشتم رائحة الغضب من كلامها؛ إذ كانت تقول: «قلت لي إنه ليس هناك من مشكلة. فما علاقة لاري ريفرز بالأمر؟ إنه لا يدير مصرفك.. أجل، أعلم أنه الوصيّ على أموالي ولكن.. دعوى قانونية؟».

مع انتهاء المكالمة عرف بندكت بالذي جرى، فتنهد قائلاً: «أظن أن مخالب لاري امتدّت إلى أبعد مما كنا نعتقد بكثير».

بان الاضطراب الشديد في لهجتها وهي تقول: «وصل به الأمر إلى حدّ تهديدهم إن لم يوافقوا على طلبه.. حسناً، هناك مصارف أخرى...».

- وسينصرف معهم بنفس الطريقة.

قالت والغضب الشديد يتملكها: «وصل به الأمر أن يهددهم بإقامة دعوى قضائية ضدهم. يا إلهي!».

فكرت قليلاً ثم سألته: «كيف بسعني الوصول إلى يوركشاير؟»

حدّق بندكت في وجهها وهو يسأل: «أتعنين غداً؟».

- لا، بل اليوم بالذات.

* * *

ماذا تفعل بحق الله؟ ولِمَ لم يمنعها ملاكها الأمين من السفر الليلة؟ لا بدّ أن حارسها الأمين في عطلة فهناك بالفعل طائرة ستقلع إلى مانشستر في الساعة التاسعة من تلك الليلة بالذات. وما إن علمت بالأمر حتى كانت في طريقها إلى هناك.

اعترت بندكت نوبة ولو متأخرة من تأنيب الضمير وحاول ثنيها عن

رأيها والانصراف عن المضي في ما عزمت عليه. فقال: «لا تعرفين شيئاً عن هذا المكان. انها منطقة نائية ومعزولة، وستجدين نفسك في أقصى بحر الشمال حيث تهب الرياح الهوجاء وتحدث أشياء مخيفة أخرى».

- لا تنقّ، وكفّ عن الحديث كالعجائز. وبدلاً من ذلك، اتصل واحجز لي غرفة في فندق هناك. عليّ إيجاد غرفة لآوي إليها بما أنّ الطائرة ستحط هناك في الثالثة والنصف فجراً.

كانت تشعر بالسرور لأنها حجزت في فندق فقد أراحت نفسها من عناء السفر بالتمدّد على سرير مريح ثم استيقظت بعد ساعتين وهي تشعر بأنها في أحسن حال؛ ثم استحمّت ولم تسترد عافيتها تماماً إلا بعد تناولها فطوراً شهياً.

كانت تدندن بنشاط وهي ترتدي أحدث بذلة من ابتكار بندكت، مؤلفة من بنطال أنيق زيتيّ مصنوع من الموهير والحرير وسترة صفراء داكنة ومنديل حريري ملائم. قالت لنفسها وهي تضع اللمسات الاخيرة من الماكياج: «ربما كان من الافضل لي لو أتصلت باللورد لارن أولاً. حسناً، كنت سأتصل به لو أردت فعلاً أن أتزوجه. إن ما دفعني إلى السفر هو فورة غضبي ومزاجي السيء... وها أنا ذا أستحق كلّ ما يجري لي!».

خطر ببالها أن تستقلّ الطائرة التالية المتجهة إلى الولايات المتحدة. لكنها نظرت من النافذة وقد طلع نهار مشرق جميل يوحي بأجواء مليئة بالمغامرات، فصرفت الفكرة عن بالها.

وقع اختيارها في شركة تأجير السيارات على سيارة مكشوفة حمراء تتسع لراكبين وهذه السيارة ذكرتها بسيارتها الأثيرة لديها في بلدها.

ما هي الا دقائق معدودة حتى اعتادت على وجود المقود على اليسار ووجهة السير المخالفة على الطريق... كانت منطلقة في رحلة المئة والعشرين ميلاً التي توصلها إلى لارن. قادت السيارة بحذر وانتباه ووصلت إلى يورك من دون حصول أي حادث يذكر. ثم قصدت مطعماً لتناول الغداء... تأمّلت الخارطة جيداً وهي تتناول وجبتها ولاحظت أن القصر يقع في جزيرة

صغيرة بعيداً عن الشاطىء ولكن لم يكن هناك سبيل للوصول إليه مباشرة إلاّ عن طريق البحر، مما استوجب وجود جسر ما للعبور إليه.

قرأت رسالة اللورد لارن مرة أخرى وأخذت بأسلوبه الخفيف الظل. تحدّث عن الفقر ولكن بطريقة ساخرة؛ وهذا ما دعاها إلى الاعتقاد بأنّها ستسعد بلقائه.

كان الوقت متأخراً عندما انطلقت في رحلتها من جديد. فحين وصلت إلى المنطقة الريفية، كانت الشمس توشك على المغيب وشعرت بقرصة برد.

حسب توجيهات الخريطة علمت أنها وصلت إلى شمال يورك مور. لحسن الحظ كانت الطريق مليئة بالعلامات البارزة لهداية المسافرين، وما عليها سوى اجتياز عشرين ميلاً لتصل إلى الشاطىء وإلى الجسر المؤدي إلى قصر لارن.

وفي الطريق، غابت الشمس كلياً وأخذت الغيوم تملأ السماء. لم تكن الطريق مضاءة واضطرّت إلى تشغيل أضواء السيارة الأمامية. وخارج دائرة هذا الضوء، امتدّت الأراضي القاتمة السوداء بعيداً لأميال عديدة. كانت معزولة كلياً وبدأت تشعر بالفزع قليلاً. فقد غدا كل شيء من حولها أكثر اسوداداً وأخذت الرياح تعصف بشدة. لم تعد أضواء السيارة تدلّها على الطريق جيداً، بسبب المطر المتساقط بقوة. أوقفت السيارة وخرجت منها تريد رفع الغطاء، ووجدته عالياً لا يتزحزح فاعتراها شعور بالخوف من وجودها وحدها في هذا المكان الموحش المقفر حيث لا أثر للحياة، ولا لضوء ولا لأي شيء في أيّ اتّجاه كان. شعرت وكأنها الانسان الوحيد الحيّ على وجه الأرض.

بيد أن هذه هي المغامرة بعينها، أليس كذلك؟

على هذا المنوال أخذت تقوّي من عزيمتها؛ حتى أنه خطر ببالها أن فارساً ملثماً قد يمرّ بها وهو على ظهر حصانه مسرعاً..

رفعت رأسها إلى السّماء الخالية من النجوم وسألتها: «ما همّي إذا كنت وحيدة؟».

تلك الصفة الأزليّة فيها، أيّ صدقها، أبت عليها إلا أن تضيف: «وتائهة ومشوّشة ومضطربة؟».

لم تحاول مجدّداً رفع الغطاء ورجعت إلى السيارة. لم يتبقّ أمامها مسافة كبيرة ولكن هذه المغامرة أرهقت أعصابها بالفعل. وتمتمت تسائل نفسها: «كيف أزجّ نفسي بمواقف كهذه؟ لكن رحلتي قاربت على الانتهاء وكلّ ما أحتاج له هو أحد السكّان المحليين ليرشدني إلى المكان».

ما إن انتهت من مساءلتها النفس، حتى لاح أمامها ضوء بطارية وتبين لها شكل رجل طويل جداً. وتحت ضوء السيارة المسلّط عليه، قُدّر لها رؤيته بوضوح. كان يرتدي بنطالاً بالياً متسخاً وسترة جلدية مرقّعة شهدت أياماً أفضل حالاً. ها هو أحد السكان المحليين الذي رغبت في لقائه، الا أنه لم يكن بالتأكيد ودوداً. فقد وقف بكلّ وقاحة في طريقها وانتظرها كي تتوقف.

فرملت السيارة وهي تكيل له سيلاً من الشتائم بصوت خافت. ولم تلبها السيارة بسرعة، وبسرعة مذهلة ضاقت المسافة التي تفصلها عن الرجل وصرخت: «تحرّك!».

ثم انعطفت بالسيارة بسرعة جنونية.. لقد كادت السيارة تصدمه لكنه نجا بأعجوبة. قفزت من السيارة ووقفت أمامه بحنق وذعر فبللها المطر المتساقط بغزارة. وصرخت في وجهه قائلة: «هل تتمنى الموت لنفسك؟ ماذا دهاك؟ ما القصد من وقوفك على هذا الشكل أمام سيارتي؟».

علا صوته فوق صوت الريح حين قال: «القصد من ذلك كان إيقافك».

ـ هذا ما كنت أحاول فعله. إنها سيارة غريبة عليّ، لم أعتد على قيادتها بعد، فلقد استأجرتها هذا الصباح.

ـ ولم تتحققي من الفرامل اللعينة.

ـ لقد تحققت منها في المطار.

ـ إذن أعتقد أن الشركة غشّتك.

تلاحقت أنفاسها وقالت: «سأتغاضى عن وقاحتك ولكنني أريد أن أعرف سبب وقوفك في وجهي مع أنك تعرف بأنني أواجه مشكلة في إيقاف السيارة. لمَ لم تبتعد عن طريقي؟».

ـ لم أتحرّك لأنك كنت ستتابعين المسير إلى الطريق المغمورة بالمياه. لا ألام بتاتاً إذا اعتبرتك حمقاء لقيادتك هذه الآلة في هذا المكان. وأنت إلى ذلك لم ترتدي الثياب المناسبة لهذا المكان. على فكرة، إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ وما همّك أنت، فهذا شأن لا يعنيك.

تفوّهت بتلك الكلمات وهي تقاوم تشنجاً أليماً أصاب حلقها فجأة، فما أغاظها هو الخوض في نقاش مع رجل يفوقها طولاً. كان بمقدورها أن تنظر إلى عيون معظم الرجال مباشرة وهي تخاطبهم، لكنها اضطرت الآن أن ترفع نظرها إلى هذا الرجل الذي يجثم فوقها بجثته الضخمة. لم يكن مهيباً فقط في طوله الفارع بل في بنيته أيضاً، فهو ضخم الكتفين وقاسي الوجه وعيناه تقدحان شرراً. لا شك أن مظهره يثير الرهبة في كل وقت، لكنها في ذلك الحين كانت كمن يتحدّث إلى ثور هائج.

خاطبها بحدّة قائلاً: «إن الأمر يعنيني إذا كنت تنوين الإتجاه نحو البحر، فالطريق مسدود».

ـ إنها بحسب الخريطة تؤدي إلى قصر لارن.

ـ إذن، لا يمكنك الذهاب إلى هناك، فـ...

ـ ومن يقول إنني لا استطيع الذهاب؟

راح صوته يدوّي في الهواء العاصف: «أبوابه ليست مفتوحة أمام السياح».

ـ لست سائحة.

ـ ما الذي جاء بك بهذا الشكل المفاجىء وغير المتوقع إذن؟

ـ ومن قال لك إنني جئت دون أن يتوقع زيارتي أحد؟

ـ أعرف أنه ما من أحد يتوقع قدومك.

ـ بل هناك من ينتظرني.. حسناً، ربما ليس اليوم بالتحديد.. تباً! ما

الذي يدعوني إلى إخبارك؟ أنا ذاهبة إلى قصر لارن.

ـ كيف؟ ستذهبين إلى هناك سباحة؟

ـ بل عبر الجسر.

سمعت صوت صرير أسنانه رغم هبوب العاصفة. قال لها: «هلاّ أصغيتِ إليّ قليلاً؟ ليس هناك...».

ـ سأشرح لك على الخريطة وأدلّك على المكان، فالخريطة معي هنا.. كيف دخل هذان الكلبان إلى سيارتي؟

نادى الرجل الكلبين وأمرهما بالخروج من السيارة، فأطاعاه في الحال.

كانت ترغي وتزبد وتقول: «هذا يكفي! سأبتعد عن هذا المكان قبل أن أتخيل رؤية أشياء غريبة، وهذا ما يحصل لي بالفعل الآن».

ـ حسناً، عودي من حيث أتيت.

ـ لا تملي عليّ أوامرك؛ سأتابع رحلتي وإذا وقفت في طريقي مجدداً فسأدهسك في الحال.

خيّل إليها أنّها تسمعه يقول بصوت منخفض: «لن تلومي إلا نفسك، وستجلبين لنفسك المتاعب».

لكنها لم تكن متأكدة ما إذا نطق فعلاً تلك الكلمات، لأنها استأنفت رحلتها وقادت سيارتها بسرعة وهي في طريقها إلى قصر لارن.

***

٢ ـ هل يعود الماضي؟

عزمت ميريل على المضيّ في هذه الرحلة وعلى إنهائها بأسرع ما يمكن. بدا لها أن الرجل يعرف القصر وكلّ ما يتعلّق به. وجال في خاطرها أن يكون هو اللورد لارن بحد ذاته. لكنها صرفت هذه الفكرة من رأسها؛ فهذا الرجل المزاجي السريع الغضب لا يمكن أن يكون صاحب الرسالة التي سحرتها. ربما كان خادماً للعائلة، ليس إلاّ.

باتت الطريق أمامها واضحة المعالم؛ ولاحت أنوار الشاطىء ومن ورائها أنوار مبنى ضخم؛ لا بدّ أنه قصر لارن.. وها هي متجهة إلى الجسر. دقّقت النظر وهي تحاول تحديد بداية الجسر. وانغمست في التفكير على هذا الشكل ولم تتنبه إلى المسافة التي قطعتها، حتى وجدت نفسها محاطة بالمياه من كلّ حدب وصوب.

هتفت بذعر: «أنا في عرض البحر. أين الجسر؟».

إلا أنه لم يكن هناك جسر، بل كان هناك مرتفع سرعان ما توارى تحت الأمواج المتصاعدة. خوف شديد استبدّ بها وتملّكها، فالشاطىء أصبح بعيداً عنها بخمسين ياردة والأمواج أخذت تعلو وتتلاطم. وانقبض صدرها وأدركت بوجل أنّ سيارتها الصغيرة لم تكن صالحة لرحلة كهذه. لم يعد باستطاعتها الرجوع والانعطاف بسيارتها فقد يكون الممرّ ضيقاً ولا يمكنها تحويل وجهة سيرها. ولكن ليس من طبيعتها التراجع لذا ستتقدّم إلى الامام وتتابع سيرها بأقصى سرعة ممكنة.

حاولت شق طريقها وسط المياه بكل عزم؛ ولكن موجة صاخبة ضربت

السيارة ورفعتها يمنة ويسرة. ووجدت نفسها فجأة بعيدة عن الطريق وعلى وشك الغرق. انتزعت حزام الأمان وتمكّنت من الخروج من السيارة التي كانت المياه تبتلعها، ثم راحت تتخبّط في الماء غير عالمة أين هي بالضبط.

فجأة، سمعت صوتاً من خلفها يناديها: «هنا! تعالي إلى هنا!».

وبجهد جهيد التفتت إلى الوراء لترى الرجل الذي أوقفها على الطريق يلوّح لها بالبطارية. صرخ بأعلى صوته: «المكان ليس عميقاً؛ فأنت طويلة كالعمود وباستطاعتك أن تطئي الأرض بقدميك».

تمكّنت من أن تلمس الأرض بأصابع قدميها ولكن سرعان ما سحبتها موجة أخرى إلى المياه العميقة. قاومت المياه بكلّ ما لديها من قوّة لكنها بدأت تلهث وحاولت أن تنادي الرجل إلا أن المياه جرفتها وملأت فاها، أما الرجل فتوارى عن الأنظار. عندئذ تملكتها فورة من الغضب الشديد فقد تركها تغرق.

ـ أين أنتِ؟

سألها ذلك من مكان قريب. فصرخت فيما التيار يشدّ بها إلى عرض البحر: «هنا!».

فجأة، غمرها شعور بالارتياح لأنها أحسّت بيد حديدية تحيط بخصرها، وسمعت صوتاً مألوفاً يقول لها: «لا بأس، ها أنا ممسك بكِ».

صار بإمكانها أن ترى الرجل عن كثب. فقبل أن يغوص في المياه خلع معطفه السميك وسترته.

ومن خلال قميصه المبلّل بالماء شعرت بكتفيه القويتين كالصخور وبعضلاته المشدودة وبجسده الصلب والضخم على جسدها. سمعته يقول بحدّة وغضب: «تمسكي بي جيداً. لن أفلتك قبل أن نصل إلى الشاطيء».

أجابت وهي تلتقط أنفاسها: «هذا يناسبني تماماً».

وتابع يقول: «ولكن لو أصغيتِ إلي منذ البداية...».

قاطعته بالقول: «أمن الضروري التحدّث في هذا الموضوع الآن؟».

سمعت صرير أسنانه وهو يجيب: «لا... ستتكلّم لاحقاً ومطوّلاً؛

فهناك الكثير مما أودّ قوله لك».

عندما وصلا إلى الممرّ جعلها تتشبث بالحجارة وطلب منها ألاّ تحرّك ساكناً.

وعندما تسلّق إلى فوق انحنى ومدّ يده نحوها، فتمسّكت بها بفرح عارم، وبدأ يرفعها. لكن ما إن تمكنت من الوقوف على رؤوس أصابعها حتى انزلقت قدمها وأحسّت بذراعه القوية تلتف حول خصرها. وصرخ بأعلى صوته: «تمسكي بعنقي».

امتثلت لأمره وللمرة الثانية وجدت نفسها ترتمي على جسده المشدود ثم انتشلها من الماء وأجلسها على الأرض. كان قلبها يخفق بشدة من الخوف والإثارة والانزعاج الكليّ لأنّ إنقاذها تمّ على يد هذا الرجل بالذات. ولكنها لم تعِ جيداً الكلمات التي تفوّهت بها عندما قالت: «كنتَ تسخر من طولي، أليسَ كذلك؟».

ـ كفيّ عن الثرثرة واصعدي إلى السيارة.

قال هذا وهو يشير إلى سيارته القديمة الطراز؛ لكنها كانت سيارة قوية تستطيع الصمود في وجه الأمواج. وتابع يقول: «هناك أوراق في المقعد الأمامي. اجلسي في المقعد الخلفي».

صعدت إلى السيارة وجلست متربعة بين الكلبين اللذين عبّرا عن ترحيبهما بها بأكثر من طريقة.

قالت على مضض: «شكراً لأنك أنقذتني».

أجابها قائلاً: «لو تعقلت قليلاً لما حدث كل هذا».

ـ لِمَ لم تخبرني بأنه ليس هناك جسر؟

ـ حاولتُ، لكنك لم تصغي إلي. هناك هذا الممرّ فقط، ويكون فوق المياه لدى انحسار المياه فقط. لحسن الحظ أني كنت مارّاً من هنا وأدركتُ أنه سيكون عليّ إنقاذك من أعمالك الحمقاء.

ـ هل أنت ذاهب إلى القصر؟

ـ أجل.

ـ أتعرف جارڤيس لارن.

اختلس نظرة خاطفة إليها قبل أن يوجّه نظره إلى الطريق ثانية، وقال: «هل أتيتِ لرؤيته؟».

ـ نعم. وليتني لم أقم بهذا. لم أتوقع أن تجري الأمور على هذا الشكل.

ـ يبدو أنك آتية من مكان بعيد.

ـ أنا أميركية، من مدينة نيويورك.

ـ قطعت كلّ هذه المسافة الطويلة لرؤية رجل لا يتوقّع قدومك. ماذا تريدين منه؟

ضايقها لأنه رفع الكلفة بينهما على هذا الشكل، فأجابت بحدّة وسرعة: «في الحقيقة أنوي الزواج به».

صمته الدّال على الدهشة روى غليلها، وسرّها أن ترى ردة فعله. فقد أخرسه كلامها. وبعد حين قال: «هل تعيدين ما قلته الآن من فضلك؟».

أجابت: «إنها قصة طويلة».

تمنّت لو لزمت الصمت ولم تخبره بأمر الزواج. فليس من المستحسن أن يصل النبأ إلى جارڤيس لارن، قبل وصولها، وتابعت تقول: «ما أخبرتك به هو مسألة شخصية، بل بالأحرى سرّ لا يجوز أن يخرج إلى العلن».

ـ تقصدين أنك لم تتقدمي بطلب يده بعد؟

صعد الدم إلى رأسها وأحست بوجهها يحمرّ، مما أثار حفيظتها فقالت بنزق: «لم أقصد هذا بتاتاً».

ـ سبق أن تقدّمتِ بطلب يده، هل وافق؟

ـ لن أخوض معك في بحث هذا الموضوع.

ـ أنت محقة. من الافضل أن تبحثي هذا الموضوع معه أليس كذلك؟ ربّما رفض طلبك!

ـ لا يمكنه الرفض.

ـ حقاً؟ لا شك أنك محقة في عدم اطلاعه على قدومك. فما من داع لمظاهر اللطف والكياسة.

ـ اسمع . . . !

ـ من الأفضل أن نرجىء البحث في هذا الموضوع الآن.

أزعجها تصرفه المتعجرف وقيامه بدور الآمر الناهي بتلك الطريقة، لكنها من شدة انفعالها لم تعلّق على الموضوع. وسرعان ما ساورها الارتياح لدى اقترابهما من القصر. . كانت السيارة تشق دربها بصعوبة آخذة في الصعود عبر طريق شديد الانحدار ينتهي أمام باب خشبي ضخم. فُتح الباب وخرجت منه امرأة متقدمة في السّن، فناداها الرجل قائلاً: «حنّة! هلاّ اهتممت بهذه السيدة قبل أن تتجمّد من البرد؟».

خرجت «ميريل» من السيارة وقد أحسّت بتيبّس في جسمها وتوجّهت بفرح وسرور نحو ما ينتظرها من دفء. . ونور. نادتها حنّة وهي تفسح لها المجال بالدخول: «تفضلي إلى الداخل».

ثم اغلقت الباب وراءهما. لكن، ويا للهول! ما إن دخلت القصر حتى اكتشفت أن الدفء الذى كانت ترجوه ليس إلاّ سراباً ووهماً، فطنت «حنّة» إلى الأمر وخاطبتها بالقول: «أنتِ بحاجة إلى نار دافئة وثياب جافة».

ثم قادت «ميريل» إلى غرفة مليئة بالكتب القديمة حيث كانت النار تشتعل في موقد قديم. فهرعت «ميريل» إلى دفء النيران وهي ترتجف من شدة البرد، ووضعت يديها فوق النيران الملتهبة، إلى أن ظهرت «حنّة» من جديد وبيدها برنس حمّام وبعض المناشف. . وقالت: «هيّا، اخلعي ثيابك قبل أن تصابي بذات الرئة».

شكرتها «ميريل» وخلعت ثيابها المبلّلة وجفّفت نفسها بالمنشفة فيما رفعت «حنّة» البرنس فوق النار. بعد قليل سألتها حنة بلهجة الأم الرحوم: «ما الذي أتى بك في مثل هذا الوقت وفي هذا الجو العاصف؟».

أجابت «ميريل» وأسنانها تصطك ببعضها البعض: «كنت أفكر في الزواج باللورد لارن».

قالت «حنّة» بذهول: «ماذا تقولين؟ لم يخبر اللورد أحداً منا بأنه موشك على الزواج».

ـ لعلّه اعتبر المسألة من شأنه الخاص.

وعلى الفور جاء ردّ «حنّة»: «لا. ليس ممن يتصرفون على هذا النحو. هناك أشخاص كثيرون يعتمدون عليه وأنا منهم. لذا سيكون من دواعي سرورنا أن يعثر على دجاجة تبيض ذهباً».

ونظرت إلى «ميريل» بفضول وكأنها فطنت إلى أمر ما: «أشاءت الظروف أن تكوني أنتِ هذه الدجاجة الذهبية؟».

ضحكت ميريل وقد أعجبتها صراحة المرأة. وقالت: «قد أكون كذلك ولكن لا تحسبي لهذا الزواج أي حساب لأنه على ما يبدو من نتاج إحدى بنات أفكاري الجنونية. وما أخشاه هو كثرة هذه الأفكار».

بعد دقائق خرجت «حنّة» أما «ميريل» فجثمت قرب الموقد تنعم بالدفء. دقّقت النظر في برنس الحمّام ورأت أنّ صاحبه أضخم منها بكثير، فقد التفّ حول جسمها النحيل مرتين تقريباً.

الغرفة بدت كالمكتبة، وكلّ ما فيها كان يشير إلى فخامة الماضي ورثاثة الحاضر لأن كل شيء بات مهملاً.

تمتمت قائلة: «إنه بحاجة إليّ. . ربما يستطيع حقاً عقد صفقة رابحة لكلينا. ولكن، ليتني لم أصل إلى هنا بهذه الطريقة».

وفيما هي سارحة بأفكارها هذه إذا بالباب يفتح وإذا بها ترى الرجل الذي أنقذها يقف أمامها. كان قد بدّل ثيابه وجفّف شعره الذي ظهر لونه البني الداكن. حيّته بالقول: «مساء الخير».

تكلمت بكلّ ما أوتي لها من وقار وهي تبعد الكلين عنها بيد فيما كانت تمسك البرنس بيدها الأخرى. تابعت تقول: «أنت تعرف من أنا ولكنني. . .».

أجاب فوراً: «أنا جارڤيس لارن».

أحسّت بدوار في رأسها وقالت معترضة: «لا، لا يمكن أن تكون أنت اللورد لارن».

لم تقل ذلك عن اقتناع بل كان مجرّد تمنٍّ. وما إن تلفّظت بتلك الكلمات

حتى عضّت على شفتها من الندامة ولكن فات الأوان. وعرفت حالما نظرت إلى وجهه الساخر أنه يقرأ افكارها.. سألها: «ولِمَ لا أكون اللورد لارن بشحمه ودمه؟ ألأنني لا ألفت انتباهك؟ مع من تخالين كنتِ تتحدثين؟ مع وكيل القصر؟».

- بالطبع لا. لم أتخيل قط أن تكون أنت اللورد لارن لأن الاختلاف واضح وضوح الشمس بينك وبين كاتب الرسالة.

- لِمَ تتعبين نفسك معي اذن؟.

- لأنك أجبت طلبي وكتبت لي الرسالة.

- لم أكتب لك البتة.

انتزعت ميريل حقيبتها وهي جدّ سعيدة، لتمكّنها من تخليص الحقيبة من براثن الأمواج وسحبت منها الرسالة ودفعتها إليه بقوة.

- عن أية رسالة تتكلّمين؟

- الرسالة التي أجبت بها على طلبي المُعلَن في الجريدة.

- المعلن؟ أي إعلان؟

- ماذا دهاك؟ أعترف أن ما قمتُ به هو عمل أحمق ولكن لا تنكر أنك أرسلت لي جواباً. الآن وبعد أن رأيت هذا المكان أستطيع أن أفهم السبب.

حدّق فيها جيداً وقال: «مهلاً. هل أنتِ المرأة ذاتها التي تبحث عن صائد ثروات؟».

اعترفت ميريل بأنها هي حقاً تلك المرأة وتابعت تقول بلهجة دفاعية: «ربما كان الأجدر بي كتابة الاعلان بشكل أفضل».

- وتعتقدين أنني فارس أحلامك ومحقق رغباتك؟

ردّت بعنفوان وجرأة: «لا، اعتقدتك محقّق رغباتي المدوّنة في الإعلان، ليس إلاّ. فآمالي ورغباتي ليست موجّهة أو معلقة على أشخاص مثلك بل هم يختلفون عنك تماماً».

أخذت تتفرّس في وجهه وهو يقرأها. رأت تعابير وجهه تتراوح بين الإنكار الشديد والغيظ والحنق. ولدى انتهائه من قراءتها سمعته يقول:

«سأقتله! سألوي عنقه وسأرفسه من هنا إلى أبد الآبدين».

- عمّن تتكلم؟

- عن فيردي أشتون، أعرف خطّه وأسلوبه في الكتابة.

أحسّت كأنّ يداً باردة تقبض على معدتها، فالطريقة التي انتفض بها جارڤيس لم تترك مجالاً للشك في أنّه صادق. إذن لقد قَطعتْ كل تلك المسافة...

قاطعته قائلة: «أتريد أن تقول لي إن شخصاً آخر كتب هذه الرسالة وانتحل اسمك؟ لا اصدق. ما من أحد يقوم بمثل هذا العمل السخيف».

وجاء جوابه: «إذن أنت لا تعرفين فيردي. فهو لا يتوانى عن القيام بأي شيء يخطر على باله.. قلت له إنني لا أرغب في هذه المسألة ولست مهتماً بإعلانك أو بك».

- بالنسبة إلى رجل يحتاج بشكل ماس إلى المال، أنت تتصرّف كطاغية. أراك متحكّماً ومستبداً للغاية.

- حاجتي للمال هي من شؤوني الخاصة وليست من شؤونك أنت.. أنا لا أصدق كلمة من هذا الهراء. أنت صحفية، أليس كذلك؟ حسناً، لن تستطيعي أن تأخذي مني قصة لتنشريها. لا أحبك، ولا أريد أن تبقي هنا. وسيسرني أن تغادري المكان بأسرع وقت ممكن.

- أنا صحفية؟؟

للوهلة الأولى فاجأها كلامه.. ولكنها تابعت بحزم قاطع: «أنا ميريل وينترز ولست صحفية أبداً».

- حسناً. فلنفترض أني أصدقك. لِمَ تريدين العثور على زوج بهذه الطريقة؟ باعتقادي أنّ الدنيا ملأى بمن يحبون اقتناص الملايين، ولا تدعوك الحاجة إلى وضع مثل هذا الاعلان الدال على اليأس المطلق. فأنت لست سيئة المظهر.

حملقت في وجهه وقد عقدت الدهشة لسانها ثم تساءلت مردّدة كلامه:

- لستُ سيئة المظهر.

ـ حسناً، لنقل إنّ شكلك مقبول بالنسبة لرجل يميل إلى السمراوات. أما أنا فلا أستسيغ هذا النوع من النساء. ولكن حتى لو كان هذا الصنف يعجبني فلن أرغب فيك أبداً.

وجدت ميريل صعوبة في التنفس لكنها أكملت حديثها: «لم أقل إنني أريد أن أتزوج عن حب».

ـ هذا الحسن حظنا.

ـ إنه عرض عمل وأنا أعني ما أقول. ما من شيء آخر يدفعني إلى الزواج برجل لا يتمتع بأي قدر من الجاذبية والسحر. لسوء الحظ، أنا بحاجة إليك وأنت كما يبدو بحاجة إلي.

ـ أنا لست بحاجة اليك، أيتها السيدة!

ـ دعني أكمل حديثي. حسب وصية أبي، لا أستطيع التصرف بأموالي قبل أن أبلغ السابعة والعشرين من العمر، أي بعد ثلاث سنوات، إلاّ إذا تزوجتُ، فإن تزوجت يحق لي أن أتصرف بأموالي كما أشاء.

أجابها بصوت متجهم: «يبدو أنه عرفك حق المعرفة. لو كنتِ ابنتي لجعلتك تنتظرين إلى أن تبلغي الخمسين من عمرك. وحتى في تلك السنّ لا أدري ما إذا كنت قادرة على التفكير والتصرف السويين، لأنه ينقصك الكثير من التعقل والتبصر بالأمور».

ـ اسمع الآن...

ـ بل أنتِ اسمعيني جيداً. رأسك مليء بالحماقات. تلقيتِ رداً على إعلانك السخيف هذا. ألم يكن بإمكانك الاتصال هاتفياً أو إيجاد طريقة للتأكد من الامر؟ طبعاً لا. تقفزين إلى أول طائرة وتأتين إلى مكان لا تعرفين شيئاً عنه لترمي بين ذراعي رجل غريب لا تعرفين شيئاً عنه أيضاً.

وجدت ميريل صعوبة في إيجاد الكلمات المناسبة فقالت متلعثمة: «لم يكن في نيتي الارتماء بين ذراعيك أو بين ذراعي أي رجل آخر؛ كلّ ما اقدّمه هو مالي لقاء استخدامي لاسمك، لا اكثر ولا اقل. لن أقدّم أكثر من ذلك أبداً، لأنك بكلّ بساطة لا تعجبني ولا تروق لي. خلت أنني أعرفك بعض

الشيء فالرجل الذي كتب هذه الرسالة طريف وساحر.

ـ لم يقل لي أحد إنني رجل ساحر، وهذا يناسبني فأنا بمأمن من النساء السخيفات أو التافهات.

تأمّلته ورأسها مرفوع وقالت: «لن تجد المهر الذي أقدّمه سخيفاً أو تافهاً فهو يسدّ ويصلح الثقوب الموجودة هنا، ألديك طريقة اخرى لسد هذه الثقوب؟».

بصوت ينذر بالشر أجاب: «هذا الأمر لا يعنيك».

لم تجبه «ميريل» على الفور؛ فمن مزاياها أن يروق مزاجها عندما يكون الشجار على أشدّه. وها هي قد بدأت تنظر إلى المسألة من زاوية أخرى، أي من جانبها المضحك.

خاطبته برقّة هذه المرّة وقالت: «لا تحتد أرجوك. أعدك بألا أقيم علاقة معك؛ فلا أعتزم ذلك أبداً».

سرّتْ لدى رؤيته يغتاظ من كلماتها، فهدّدها بالقول: «لا تستفزيني أيتها السيدة! لقد طفح الكيل».

ـ لنحسم الأمر ونتكلّم عن النقطة الجوهرية، فبيت القصيد هو أنني بحاجة إلى اسمك وأنت بحاجة إلى مالي.

رد بسرعة حاسماً الأمر: «ما احتاج إليه وأطلبه منك هو خروجك من هذا المكان والاختفاء من حياتي».

ـ إذن، عليّ الذهاب من هنا... كيف؟ في سيارتي المغمورة بالمياه؟

ـ سوف نعثر عليها عندما تنحسر المياه.

ـ عندما أسترجعها سأقرّر ما يجب عليّ عمله. من فضلك، هلا نظرتَ إلي وأنا أتحدّث إليك؟ أطلب منك ذلك من باب اللياقة.

هدر بصوت غاضب وهو يتجنب النظر اليها: «أنا لا أنظر اليك من باب اللياقة».

خفضت نظرها بسرعة ورأت الزنار منحلاً وبرنس الحمام الذي ترتديه مرتخياً قليلاً. وللحظة وجيزة تخبّطت في الحيرة والارتباك وتجمّدت في مكانها

لا تحرّك ساكناً. خلال ذلك الوقت ظنّ «جارڤيس» أنها سوّت الأمر وأن بإمكانه أن ينظر إليها. ولكن ما إن تطلّع إليها ثانية حتى حول نظره بعيداً. في تلك اللحظة بالذات التقت عيناهما ولمحت ردة فعل قوية فيهما.

تذكّرت على الفور ما قاله لها قبل قليل عن كونها مقبولة الشكل. لكنها عرفت الآن أن شعوره مغاير لما قاله لأن نظرته قالت لها العكس تماماً.

نظر إليها وقال: «ستأخذك «حنة» إلى غرفتك وتقدّم لك العشاء».

ـ أتعني أنك لن تدعوني لتناول العشاء معك؟

نظر إليها ملياً وهو يسألها: «وأنت في هذه الثياب؟».

ـ ألا توجد بعض الثياب التي يمكنني استعارتها؟

ـ سبق أن أخذتِ برنس الحمام مني. ماذا عساي أن أقدّم لك أيضاً؟

ضمّت يديها إلى صدرها ونظرت إليه بتحدّ قائلة: «لورد، أنت لا ترغب في تناول العشاء معي».

ـ أنت تدهشينني.

ـ إذن؟

ـ حدثتك بكلّ تهذيب ولكني في الواقع أشك في أمرك وأشتم رائحة كريهة في الجو.

ضحكت إلى حدّ الاختناق وقالت: «بعد تلك الرحلة البحرية لا أستبعد هذا».

مزاجها المفاجىء أربكه، لكنه سرعان ما تمالك أعصابه وقال: «لا أثق بك ولا أريد أن أمضي في التحدث معك لحظة أخرى».

ثم رفع صوته منادياً «حنة»: «تستطيعين الدخول الآن يا حنة».

فتح الباب بسرعة مذهلة وبدا من الواضح أنّ «حنّة» كانت تسترق السمع من خلف الباب، وأنّ مستخدمها يجد الأمر طبيعياً وعادياً. قال لها: «من فضلك، خذي الآنسة «وينترز» إلى الغرفة الخضراء وقدّمي لها الطعام وكل وسائل الراحة».

علّقت «ميريل» بالقول: «تعاملني وكأنني حصان أو حيوان لديك».

أجابها: «إذا طُلب مني إعطاء رأيي الصريح بك فسنمضي الليلة هنا إلى أن يكون مصير أحدنا القبر ومصير الآخر الزنزانة. لنقف عند هذا الحدّ قبل أن يحصل ما ليس بالحسبان».

قال هذا وخرج من الغرفة بسرعة دون أن ينتظر ردّاً منها.

قالت حنة: «سأريك غرفتك».

وسارت وراء حنّة وهي تفكر في أنها مغامرة حقّاً!

لفتت نظرها الأشياء المحيطة بها. كانت الجدران الحجرية مغطاة بالدروع والأسلحة. العصور الإنكليزية الوسطى عادت إلى الحياة من حولها وهي تلتفت هنا وهناك مأخوذة كلياً. خاطبتها «حنّة» بلطف وهي تدعوها إلى صعود الدرج الملتوي الفسيح: «سوف أريك المكان بكامله غداً».

تابعتا سيرهما في رواق حجري؛ كان الضوء فيه خافتاً، وراحت ميريل تتطلّع من حولها على مهل. وقالت بتعجّب: «يا لها من جدران قديمة؛ ولكن حالتها مزرية».

توقّفت كي تتلمّس الحجارة الرمادية بأطراف أصابعها، وفجأة وقعت يدها على لوحة محفورة على الحائط وقد نقشت عليها بعض الكلمات. تمكنت من قراءتها ولكن بصعوبة: «من عمق الأمواج الهوجاء أطلّت فاتنة حسناء بعينيها الخضراوين وبضفائرها السوداء لتتزوج اللورد وتنقذ الأنسباء بمال أب يعدّ من الأثرياء».

وقفت «ميريل» واجمة، في ذلك الرواق المعتم، تستمع إلى صخب الرياح العاتية.

سألت ميريل حنّة: «منذ متى كتبت هذه السطور؟».

بدت لهجتها غريبة حتى على مسمعها. فأجابتها حنّة: «كتبت منذ مئات السنين، وذلك عندما تزوج الفيكونت الخامس من فتاة فرنسية فاحشة الثراء؛ ثم حوّلها عازف القيثار إلى أغنية وغنّاها في حفل الزفاف، وبعد ذلك أتى أحدهم ونقشها هنا».

ـ وهل كان شعرها أسود وعيناها خضراوين؟

ـ حسناً؛ يقال إن لون عينيها كان أخضر ولكن لون شعرها كان بنّياً داكناً. يمكنك رؤية صورتها في معرض الصور. فالشاعر وصف لون شعرها بالأسود تمشّياً مع القافية.

تساءلت ميريل: «إنها قصة حقيقية إذن».

شعور غريب بالراحة ساورها رغم أنها وجدت الأمر سخيفاً مبنياً على الخيال. وأحسّت أيضاً كأنّ هناك عيوناً تتفرس فيها في جنح الظلام..

سألت ميريل حنة مجدداً: «إنها قصة قديمة تروي أحداثاً جرت في الماضي وليس في المستقبل، أليس كذلك؟».

لم تسمع حنّة سؤالها لأنها كانت تمشي بخطىً واسعة ونادتها قائلة: «ها هي غرفتك».

أسرعت ولحقت بها؛ وفتحت «حنّة» الباب، وإذا بميريل تجد نفسها في غرفة فسيحة أرضيّتها خشبية، مغطاة بقطع من السجاد المبعثرة هنا وهناك، ولكنها لم تبد مناسبة لضخامة الغرفة. أما النوافذ العالية فكانت مغطاة بستائر سميكة، لونها ضارب إلى الأحمر الداكن. وفي وسط الغرفة رأت سريراً قديم الطراز.

ـ إنّه سرير حقيقي بأربع قوائم. خلتُ أن لون الستائر أخضر بما أنّ الغرفة تدعى الغرفة الخضراء. ولكن لا شيء لونه أخضر هنا!.

دفء موقد الحطب لم يصل إلى ذلك الجانب من الغرفة. كانت ميريل ترتجف من البرد، فاقتربت من الموقد وهي تقول: «لا أعتقد أن لديكم تدفئة مركزية هنا».

صاحت «حنّة» بدهشة: «في مكان بهذا الحجم؟ إنها عملية مكلفة جداً والسيّد لا يملك فلساً واحداً ليتنعم به. ولكن أظن أنك معتادة على التدفئة المركزية، أليس كذلك؟».

أومأت ميريل برأسها موافقة ثم قالت: «إن الجو بارد بعض الشيء».

حاولت حنّة مواساتها فقالت: «لا عليك، سرعان ما ستعتادين على هذا».

بعد برهة قصيرة عادت حنة ومعها العشاء وقميص نوم. فأسرّت في أذن ميريل قائلة: «إنه قميص نومي. سوف تشعرين بالدفء والراحة لدى ارتدائه. وهذا زوج من الجوارب».

ثم أخرجت زوجاً سميكاً من الجوارب قائلة: «إنه لسيد القصر؛ ولكنه لا يعلم بأني أحضرته.. اجلسي الآن وسأقدم لك طبق الطعام».

كانت وجبة دسمة ولذيذة خاصة بوجود العصير. سألت ميريل حنّة: «هل دسّ لي بعض الزرنيخ في العصير؟».

ـ وكأني اخبرته بالأمر! فالمطبخ مملكتي الخاصة وأنا صاحبة الأمر والنهي فيه.

ـ ولكنه سيد القصر القوي. أليس من المفروض أن تخدميه وتطيعيه؟

سخرت «حنّة»، من الأمر، وكأنها تستخف بهذا الكلام. ثمّ أجّجت النار في الموقد وأخبرت ميريل بأنها ستعود لاحقاً، وخرجت من الغرفة.

بدا أثر التعب واضحاً على ميريل بعد نهار مليء بالاثارة والمغامرة. الجلوس بالقرب من الموقد منحها شعوراً بالدفء والراحة والهناء. أغرتها تلك الأجواء المريحة بأن تتطلّع صوب الوهج الأحمر وأن تهيم بأفكارها بعيداً، وراحت الصور تتلاحق في خاطرها وعادت بها الذكرى إلى مواجهتها الأولى مع جارڤيس لارن ووقوفه في طريقها ووقاحته اللامتناهية معها. وراح خيالها بعيداً لترى نفسها مجدّداً في المياه المجمّدة وهي تحاول جاهدة الخروج من السيارة ثم رأت فجأة يد رجل قوي رفعتها كالريشة من بين الأمواج. وكم أحست بالهناء والسعادة على صدره القوي العريض! لم يسبق لأي رجل مرّ في حياتها من قبل أن جعلها تشعر بالسعادة، فجميعهم حصروا اهتمامهم بأنفسهم. كانت كلماتهم مدروسة ولا يرتدون إلاّ البذلات الرسمية الأنيقة والغالية الثمن. أحبّتهم واستمتعت برفقتهم، لكنها لم تلجأ إلى أيّ منهم للتحدث عن مشاكلها أو لحلّها.

غلبها النّعاس، فتمطت وهي تفكّر في السرير الذي يغريها بالنوم. فأسدلت الستائر حوله وتبيّن لها أنها سدّ منيع في وجه التيار الهوائي. لا

شكّ إذن أنّ للحياة في القرون الوسطى مميزات جمة. لكنها بدّلت رأيها عندما صعدت إلى الفراش القديم جداً، وكأنه محشو بقطع من اللفت العائدة إلى القرون الوسطى. وقالت بينها وبين نفسها: «لا بدّ أن أصحاب القصر في الماضي كانوا يختارون هذه الغرفة للضيوف غير المرغوب فيهم. . فإذا قدّر لي البقاء في هذا المكان، فسيكون هذا الفراش أول قطعة أستبدلها من الأثاث».

* * *

٣ ـ كلمات على الحجر

استيقظت ميريل عندما بدأ نور الصّباح يدفع بالظلمة ليحلّ مكانها. قفزت من الفراش وأزاحت الستائر عن النوافذ، فغمر نور الشمس الغرفة. لقد هدأت العاصفة، وبدا بهاء الربيع الانكليزي في الصباح. كانت غرفتها تطلّ على الأراضي البرّية وكان الممرّ المرتفع أشبه بشريط رفيع تحت المياه.

فتحت ميريل النوافذ العالية وخرجت لتستقبل نور الصباح المشرق. ومن الشرفة الصغيرة استطاعت أن تنظر إلى البحر الذي بدا هادئاً بعد عاصفة الأمس. وفيما هي واقفة بسكون، من دون حركة، حبست أنفاسها وكأنها تتوقّع حدوث شيء ما. فالسكون بعث السعادة إليها.

لم يكن صمتاً مطبقاً، إذ كانت تستمع إلى عصافير البحر ورذاذ الأمواج. لكن تلك الأصوات بدت بطريقة خفية مكتنفة بالأسرار. . . فوقها كانت السماء بلونها الأزرق الداكن خالية من الغيوم السوداء، الا أنها احتوت بعض السّحب البيضاء. وابتسمت ميريل.

رفعت رأسها وأغمضت عينيها لتشعر بالدفء على وجهها. ثم أخذت تتنشّق هواء نقياً لا مثيل له. اغتسلت في الحمّام الأثري على سمفونية خرير المياه الجارية في الانابيب. وحالما خرجت رأت «حنّة» قادمة بسرعة تحمل بيدها بذلتها التي نجت بأعجوبة، والفضل يعود إلى يد «حنّة» الماهرة في التنظيف. كما أحضرت معها أيضاً إبريقاً من القهوة. قالت حنّة: «نحن عادة نشرب الشاي ولكني أحضرت القهوة خصّيصاً لك لأنك أميركية».

www.elromancia.com

ـ شكراً لك يا حنّة.

ـ عندما تصبحين جاهزة، يمكنك تناول الفطور في الغرفة الصباحية.

لم تفقد ميريل رباطة جأشها منذ وصولها إلا حينذاك بسبب ذلك الإخطار.

بعد دقائق معدودة، نزلت الدرج بتأنّ وحذر واتجهت نحو الغرفة الصباحية وهي تتساءل إنْ كان جارڤيس سيحييها بحمام من الزيت المغلي. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل حين فتحت الباب وتطلّعت إلى الداخل. في البدء ظنّت أن الغرفة خالية، لكنها سمعت صوتاً يقول: «مرحباً، هل تتجولين في مملكتك؟».

قرب النافذة، وقف رجل نحيل معتدل القامة، أخذ يتأمّل ميريل وهي تدخل بفضول ومرح. سألته وهي ترمقه بطرف عينها: «مملكتي؟».

ـ ستكون مملكتك إذا أصبحتِ السيدة لارن.

أجابت: «ما الذي يجعلك تفكّر على هذا النحو؟».

عرفته في الحال وأضافت: «فيردي، فيردي أشتون».

أشرق وجهه الشّقي وهو يقول: «وأخيراً أصبحتُ شهيراً».

اقتربت من النافذة لتقف إلى جانبه وقالت: «من الأفضل أن تغادر هذا المكان قبل أن يقتلك اللورد لارن، وسأتولّى أنا هذا الأمر إنْ لم يقم هو بذلك. كيف تجرأت وكتبت لي تلك الرسالة؟».

ـ كان عليّ القيام بذلك لأن جارڤيس صعّب عليّ الأمر وعاندني.

ـ عندما أتخلّص منك سوف تعرف معنى يعاند.

بدا وكأنها جرحته بكلامها، فقال: «لم أقصد سوى مساعدة صديقي وحلّ مشاكله».

ـ لكن لم يخطر ببالك أنه قد ينشأ بيني وبينه كره متبادل.

ـ أعلم أنّ جارڤيس ليس بالرّجل السهل لكني لم أتوقع أن تظهري من دون سابق انذار. كنتُ سأتدبّر الأمر كي تعتادا على بعضكما البعض.

ـ ما حصل هو كارثة بالفعل.

ـ أعلم ذلك. اتصل بي جارڤيس في الصباح الباكر وكلّمني بكلّ صراحة، فهو يبغي قتلي.

ـ ليقف معي في الصف اذن. أنا أيضاً أريد أن أقتلك.

تلألأت عينا فيردي فرحاً وقال: «ما تعرضينه شيء مختلف تماماً؛ على الرحب والسعة».

ـ لا تمارس سحرك علي. فلن يجديك نفعاً.

لكنها كانت تكذب وعرفت أن الكذبة لم تنطلِ عليه. فللسحر سلطة على قلوب الناس وهي تخنق الجاذبية، اذ لا يوجد أناس كثيرون يتمتعون بالسحر الجذاب في هذا العالم. لا يمكنها أن تقسو عليه لأن ذلك شبيه بتأنيب طفل مرح ضاحك. فقالت وهي تسترجع الأحداث الماضية: «كم كان شديد الغضب ليلة أمس! ما يفاجئني هو انتظاره حتى الصباح للاتصال بك».

ـ لم ينتظر. اتصل بي الليلة الفائتة ولكني كنت خارج المنزل فترك رسالة كادت تعطل هاتفي الذي يسجّل المكالمات في غيابي. ثم أعاد الكرّة باكراً هذا الصباح وأمرني بالمجيء إلى هنا بسرعة.

ـ كيف وصلت إلى هنا وما زالت الأمواج صاخبة؟

ضحك وقال: «لديّ قارب صغير أربطه على الشاطىء. ألحّت أختي سارة على المجيء معي. هي الآن تبحث عن جارڤيس. احذري جيداً، فهي تخطط للزواج به».

سألته باستياء: «تقصد أنها تحبه، أليس كذلك؟ إذن من الأفضل أن أنسحب وأخلي الساحة لها».

ـ لا تهتمي للأمر. فجارڤيس يعرف سارة منذ أمد بعيد، ولو أراد الزواج بها لفعل ذلك من قبل. لقد ربط الزواج بين عائلتي آشتون ولارن من قبل. والآن تعتقد سارة أنه لا يحق لامرأة أخرى أن تتزوجه. ولكن إن سألتني أنحبه؟ أقول لك مستحيل.. احترسي جيداً، فقد تدسّ لك السّم في فنجان الشاي.

ـ هذا إن لم يقم جارڤيس بهذا العمل قبلها.
ـ كلّما زادت معرفتك به، كلّما أحسن معاملته لك.
قالت بريبة: «آمل ذلك».
ـ ألا تعتقدين أن من الممكن أن تحبيه؟
ـ لا، حتى لو صار عمري مئة سنة.
ـ هذا شيء غريب؛ فهذا ما قاله عنك تماماً!
قالت ساخطة: «لا أدري لمَا أتحدّث إليك؛ فلو غرقتُ لكنت أنت السبب».
ـ لكنك لم تغرقي، فالقدر هو الذي أتى بك إلينا كي تتزوجي جارڤيس وتنقذي هذا المكان من الانهيار.
ـ كيف تأكدت أنني غنية؟
ـ لقد تحرّيت عنك. أنت حقاً ابنة كرادوك وينترز الذي يملك آبار النفط...؟.
ـ تحققت من ذلك بنفسك؟ لكنه لم يصدقني، فهو يعتقد أني صحفية.
ـ ليس بعد الآن. أطلعتُه على كلّ شيء. جارڤيس بحاجة ماسة إلى مبلغ كبير من المال وبسرعة.
لفتت نظره لأمر هام بالقول: «لكنه إذا رفض أموالي فلن نتقدّم أبداً وسنبقى على هذا الوضع».
وافقها فيردي الرأي وقال بلهجة جادّة: «أنت محقة. يتوجّب علينا أولاً تحديد المشاكل، ومن ثم نتقدم وننتقل إلى المرحلة التالية وهي حلّ هذه المشاكل».
ـ لا تبنِ قصوراً في الهواء. حالما أعثر على سيارتي وأستعيد أغراضي سوف...
كانت ستمضي وتقول: «أغادر المكان فوراً». لكنها كانت تقف قرب نافذة زجاجية عالية تطلّ على الحديقة وأشعة الشمس تدغدغ وجهها. عندئذٍ لاذت بالصمت وماتت الكلمات على شفتيها. فكلّ الأحاسيس التي غمرتها

عندما كانت على الشرفة، استيقظت فيها وبقوة أكبر. وبحركة تلقائية دفعت الباب وخرجت إلى الحديقة.
لم تكن حديقة منظمة بدقة، إذ كانت تحتوي على ما هبّ ودبّ من نباتات وأشجار. ولكن بطريقة عشوائية لا منهجية فيها.
وراودها مرة أخرى الاحساس بالسلام الهنيء وهو شعور لم تعرفه من قبل.. أخذت تتجوّل على طول ممر مكسوّ بالأعشاب برغبة وشوق، وتوقفت أكثر من مرة لتنظر إلى الأشجار المثقلة بثمارها. فبعد عاصفة الليلة السابقة، رأت كلّ شيء يقطر ماء حتى أنها أحسّت بنقطة ماء كبيرة تنساب على عنقها، فاكتفت بالضحك.
لحق بها فيردي بسرعة وأخذ يراقبها عن بُعد ثم اقترب منها وخاطبها قائلاً: «الحديقة بحاجة لعناية أكبر، ولكن ذلك يتطلب الكثير من الجهد. ولديّ الكثير من الخطط والمشاريع».
ـ وهل أنت البستاني هنا؟
ـ أقوم ببعض الأعمال لكي أعوّض لجارڤيس ما أدين له من مال.
ـ وهل تعتني بحدائق الآخرين؟ أقصد هل أنت بطبيعتك بستاني؟
ـ لا. أنا رسام، لكني أتسكّع هنا وأعتني بالحديقة كما يحلو لي، كي أوفر على جارڤيس استخدام بستاني.
ـ وكي يقبل تخلّفك عن دفع الايجار؟ لا بدّ أن يكون غير الرجل الذي التقيته.
ـ كنّا معاً في المدرسة، وأعتقد أني أعرفه أكثر من أي شخص آخر.
ـ وهل اعتقدت أنه سيرحّب بفكرة الزواج بامرأة غريبة؟
ـ ليس على الفور؛ فهو رجل متكبر. ولكنك لو.. آه، حسناً، لا بأس. لقد أفسدتِ الأمر، لكني أسامحك.
تابعا على هذا المنوال يتشاجران بودّ ومحبة فيما كان يجول بها في سائر أنحاء الحديقة.
قصّتْ عليه ما حدث بينها وبين لاري ريفرز من مناوشات واستمتع

فيردي بسماع هذه القصة. وما لبث أن قال لها: «أود أن تصبحي السيدة لارن».

ردت وهي تقرأ أفكاره بكلّ سهولة: «وهكذا ستتمكن من البقاء في بيتك من دون دفع الايجار، اليس كذلك؟».

لم يبدُ عليه الخجل بل أجاب بكل ثقة: «تماماً. لا تتسرّعي بالرحيل. امنحينا فرصة، فقد تحبّيننا، ولا تنسي كم هو جميل هذا المكان».

أجابت بأناة: «إنه مكان جميل بالفعل».

ومرة أخرى أنصتت إلى السكون، سكون الأصوات الرقيقة، كأصوات العصافير المغرّدة وهدير البحر الصامت. ولكن، إن هي عادت إلى موطنها، فلن يكون بانتظارها سوى الضجيج وروائح البنزين والتشاجر.. وكان فيردي الداهية يراقبها عن كثب فيما كان هذا الحوار يدور في داخلها.

أخيراً، تنهدّت كشخص يستفيق من أحلامه رغماً عنه وقالت: «حسبتك نسيت أنّ خطيبي سيطردني».

ـ لكن هذا الأمر يستلزم بعض الوقت. فلن يكون باستطاعتك الرحيل قبل أن تظهر سيارتك.

ابتسما وكأنهما يتآمران؛ وشبك ذراعها بذراعه وهو يقول: «لندخل ونتناول الفطور».

عندما اقتربا من القصر، رأت جارڤيس في انتظارهما. اهتزّت لرؤيته، فالالتقاء به فجأة على هذا النحو لم يتح لها الوقت لتستعد وتستحضر شعورها بالبغض نحوه.

أدركت أن هذا الرجل يتمتع بميزات أخرى ليس لها علاقة بطوله ولا بعرض منكبيه ولا بغروره وتكبّره ولا بمظهره الذي ينمّ عن السلطة والنفوذ ولا بالطريقة التي ينظر بها إليها حيث بدا كرجل معجب يحاول إخفاء مشاعره، بل هي ميزات تضم هذه الصفات جميعاً. فهناك ما يتميّز به عن كلّ الرجال. ولو شاء القدر والتقيا في ظروف مختلفة لأثار انتباهها حتماً.. دنا منهما، وقال بكلّ لطف وبلهجة لا تخلو من الرسمية: «آمل أن تكوني قد

نمت جيداً الليلة يا آنسة «وينترز»».

ـ كانت ليلة رائعة.

وتابع حديثه قائلاً: «تبدين في هذه الثياب أفضل حالاً من الأمس».

فجأة، تراءت لميريل صورته عندما نظر إليها بإعجاب. وبسرعة رفعت بصرها إلى وجهه وسمعته وهو يأخذ نفساً عميقاً لدى قراءته مغزى نظرتها؛ فقالت: «تقصد برنس الحمام؟».

أجاب باقتضاب: «بالتأكيد. آسف، فقد كان فضفاضاً...».

لم يجدر به التكلم على هذا النحو، فقد أخطأ في اختيار كلماته التي فتحت باب الذاكرة وأعادت إلى ذهنهما ذلك المشهد من جديد. تراجع جارڤيس إلى الوراء كأنما أصيب بلفحة شمس قوية.

ثم انضمّت اليهم امرأة، فسارع جارڤيس وقدّمها باسم سارة أشتون. قدّرت ميريل أنّ الفتاة في أواخر العشرينات من عمرها. كانت شقراء الشعر، وارستقراطية الملامح؛ ليس جمالها بالخارق، ولكن لم يخلُ وجهها من الوسامة والجمال. والواقع أن ميريل سارعت تحيّيها بكل تهذيب ووقفت جانباً كي تفسح لها المجال للدخول إلى الغرفة ثم جلست سارة إلى جانب جارڤيس؛ وكانت الأكثر قرباً لابريق الشاي. فسألت ميريل: «ربما تفضلين القهوة؟».

ـ أحبّ الشاي الانكليزي.

تصدّرت سارة مائدة الفطور وكأنها سيدة القصر. كانت في غاية اللطف والتهذيب مع ميريل وعاملتها كأي ضيف آخر.

شعرت ميريل بأنّ جارڤيس لم يكن مرتاحاً، وتعجبت من عدم قدرته على استعادة رباطة جأشه. فاللورد الانكليزي يجب أن يكون خبيراً بأمور الدنيا وسريع التكيّف.

التفتت نحوه ووجهت اليه ملاحظة لطيفة؛ فأجابها بتهذيب من دون أن يتابع الموضوع. فتدخّلت سارة بكلّ قوّتها لتتولى زمام الحديث، وكان جارڤيس يبذل كلّ ما لديه من جهد ليتظاهر باللامبالاة. وكما توقعت

ميريل تحسّن مزاجه بعد النوم وأصبح قادراً على ملاقاتها بنفسية هادئة ملؤها الودّ والعزم على مساعدتها في العثور على السيارة ومن ثم ترحيلها بكلّ نيّة حسنة ومحبّة. لكنه عقد النية على القيام بهذه الأمور قبل أن يتحدّث إلى «فيردي».

لقد راعه أن يعلم أن هذه المرأة ثرية بالفعل. فلو تودّد إليها الآن، لاعتقدت أنه يحاول اصطياد ثروتها وأنه يبتسم لها من أجل المال. وعندما تذكّر ما الذي قاله لها بالأمس تأوّه مستنكراً في قرارة نفسه تلفظه بتلك الكلمات. كان يراقبها وهي تتمشى في الحديقة مع فيردي، غارقة بكلّ جوارحها في الحديث معه. بدت رائعة الجمال وهو الذي قال لها الليلة الفائتة إنها مقبولة الشكل ومتوسطة الجمال. وتذكر كيف لمعت عيناها الخضراوان من فرط سخطها. لا، لا يمكن أن يعيش بسرور مع امرأة كهذه، وما من رجل يتمتع بكلّ قواه العقلية يحبّذ أن تبقى امرأة مثلها بقربه لتقلب حياته رأساً على عقب وتهدّد هناء حياته. ولكن يا لروعتها وبهائها! إنها كالنار أو كسيف ذي حدّين، فهي خطرة للغاية.

لاحظ أن سارة تتوجه بكلامها إليه، فأجاب بسرعة: «أرجو المعذرة».

ـ سألتك إن كنت تريد المزيد من الخبز.

ـ لا، شكراً.

وبكل مهارة أخذت تقود دفة الحديث، فطلبت من ميريل أن تتحدّث عن نفسها وعن عائلتها. بعد أن عرفت ميريل من فيردي مدى اهتمام سارة بالحسب والنسب فهمت مرادها وقررت أن تسمعها رواية ممتعة فقالت: «والدي كرادوك وينترز..».

وأضاف فيردي قائلاً: «مالك آبار النفط الشهير».

تابعت ميريل حديثها بهدوء: «لكن عائلته ليست معروفة. ولد في كوخ بسيط لأن والده لم يستطع توفير مكان أفضل منه، أما والدته فكانت من عامة الشعب، مبتذلة»

قاطعها فيردي وهو يتمتم: «أنت تضخّمين الامور».

ـ حقاً؟

أضاف جارڤيس: «نعم».

ثم أخفى فمه بيده. أما سارة فتابعت حديثها من دون أن تتنبّه للهجة ميريل التهكمية فقالت: «يبدو أنكِ أمضيتِ حياة صعبة في مرحلة الصّبا. فمن ينحدر من سلالة كهذه يصعب عليه أن يتناسى أصله».

أجابت ميريل بصوت حادّ ومرتفع بعض الشيء: «بالطبع كنا من طبقة العامة، ولكن عندما تكون غنياً لا أحد ينعتك بالحثالة، على الأقل ليس في وجهك».

وأخذت تتكلم بلهجة مبطنة: «ولكن عندما يتكلم الناس مع أصدقائهم يقولون إنك مبتذل وسوقي ومدّع وعديم التهذيب والأناقة».

رفع جارڤيس رأسه فجأة وقال: «لم أقل قط...».

ثم أخذ نفساً وقد فطن إلى الفخ الذي أوقعته فيه. أما ميريل فقد ارتسمت في عينيها الضاحكتين نظرة ملؤها التحدي.

سألها جارڤيس بتهذيب: «أتريدين مزيداً من الشاي؟».

ـ نعم، شكراً.

قبيل الانتهاء من الفطور لعبت سارة أهم ورقة لديها، فقالت لميريل: «آنسة وينترز، جميعنا ندين لك بالاعتذار. ما فعله أخي أمر مشين فعلاً. وهذا لسان حالنا نحن الاثنين. أليس كذلك يا جارڤيس؟».

ردّد جارڤيس: «مشين بالفعل».

لم تستطع ميريل أن تسكت، وبصوت ملؤه البراءة سألت: «وما هو ذلك العمل المشين الذي قام به؟».

حملقت سارة بها وقالت باضطراب كليّ: «ماذا؟ هو... أتقصدين... ألا تعلمين...؟».

نقّل جارڤيس نظراته بين المرأتين ثم همّ بالتحدث، لكنه عاد فالتزم الصمت. أما فيردي فابتسم وقال: «إنها على علم بكلّ شيء بالطبع. لا عليكِ يا أختي؛ لقد عقدنا الصلح فميريل سيدة متسامحة».

استعادت سارة بعض رباطة جأشها وتوجهت إلى ميريل بالقول: «آمل أن تكوني قد سامحته بالفعل. أقول هذا من أجلك، فلا شك أنك تشعرين بالانزعاج لإضاعة وقتك».

ـ من قال إني أضعت وقتي؟ لم أرَ هذا المكان من قبل، وسأقضي أوقاتاً جميلة أمتّع نظري فيه.

قال فيردي: «يجب أن تسترجع السيارة».

وأردفت ميريل تقول: «وعليّ أنّ أوضح الأمر لشركة تأجير السيارات».

تمتم جارڤيس قائلاً: «لا أعلم كيف ستتدبرين هذا الأمر».

فأجابته: «سأواجه صعوبة بلا شك. سوف يقولون أشياء عن مدى سخف النساء وما شابه. لكن عليّ تحمّل كل ذلك».

نظرت إليه مباشرة، وفجأة ظهرت ابتسامة على وجهه. كانت ابتسامة مليئة بالمرح والجذل تدعوها إلى مشاركته في الاستمتاع بالوقت والابتسام. وإن دلت على شيء فهي تدلّ على ما قد تكون عليه شخصية هذا الانسان لو لم تصهره الهموم منذ صغره. وعادت سارة تفتح الحديث قائلة: «حسناً، نحن ممتنون لتحملك لنا. فالطريقة التي تم استغلالك بها لم تكن ممتعة».

ـ إذن. في هذه الحال، من الأفضل أن أنتقل إلى الفندق.

لكنها كانت تراوغ. ربما تتجمد نار جهنم قبل أن تترك ذلك المكان الذي أصبح يزداد متعة مع مرور كل دقيقة. أخذت تراقب جارڤيس وهي تشعر بأنغام تتردّد في داخلها.

استجمع جارڤيس قواه وقال: «أرجو أن تقبلي ضيافتي ما دمتِ بحاجة إليها».

ـ هذا لطف منك! لم أتوقع هذا قط. آمل ألا أسبب لك إزعاجاً أو إحراجاً.

أجابها بكل ثقة: «لا، أبداً».

عرفت أنه فهم أنها تراوغ، ولكنه يتحلى بصفات الجنتلمان الانكليزي

ولن يعلّق على الموضوع. لقد ربحت الجولة الأولى. وعندما همّت بالانصراف وقف جارڤيس منحنياً باحترام وفقاً للتقاليد ولكن ميريل لم تصدّق عينيها عندما لمست في عينيه نظرة خجولة ملؤها التقدير والاعجاب.

وجدت فيردي رفيقاً مسلّياً وممتعاً حين أوصلها إلى الشاطىء على متن مركبه الصغير، وبعد أن قطعا الطريق البحرية في السيارة إلى ويتبي، لم يجدا صعوبة في الاهتداء إلى مكان سيارتها. فالجميع علموا بأمر السيارة الحمراء المكشوفة التي ظهرت لدى انحسار المياه وقد علقت بين الصخور وسرعان ما اختفت ما إن ارتفع منسوب المياه مجدّداً. واتفقا مع شركة محلية على رفع السيارة ما إن تنحسر المياه ثانية.

قالت بحسرة: «إلى أن يحين وقت انتشالها من الماء، تبقى جميع ثيابي في داخلها».

لكنّها حلّت هذه المسألة بزيارة قامت بها بعد ظهر ذلك اليوم إلى المحالّ التجارية المحلية. قالت وهي تتباهى أمام فيردي بفستان صوفي أحمر غامق: «لو كنت في نيويورك لدفعت أضعافاً مضاعفة ثمن هذا الفستان. والمهمّ أنني أحبّه».

قصدت السوق المحلي وفي نيتها شراء الحاجيات الأساسية فقط إلى أن تعود إلى وطنها، إلا أنها خرجت وهي تحمل مجموعة كبيرة من الثياب. وفي ساعة متأخرة من تلك الأمسية أوصلها فيردي إلى القصر وحمل حقائبها وأمتعتها إلى الباب وقبّل وجنتيها ثم انصرف وهو يصفّر. ثم التقت بحنة التي طلبت منها أن تذهب إلى المكتبة وتتناول وجبة سريعة حضرتها لها.

خبت الأنوار في المكتبة بحيث لم يبق إلا نور مشتعل في الموقد وضوء لمبة عادية الحجم. انتقت أريكة قرب الموقد وجلست بحذر كيلا يتمزّق القماش المقصّب المهلهل. وفي هذا الركن رآها جارڤيس بعد عدة دقائق. وعندما ركع على ركبتيه ليشعل الموقد، بدا لها متورّداً من وهج النار. كان رجلاً قوي الجسم يضج بالحركة والحياة، رجلاً قضى معظم أيامه في الهواء الطلق.

لدى انتهائه من وضع الأخشاب في الموقد بقي جالساً على الأرض ثم سألها: «هل عثرتِ على سيارتك؟».

ـ أجل، لكنها عالقة بين الصخور، وسيتم انتشالها بواسطة الرافعة غداً. لذا احتجت لشراء ثياب جديدة؛ فسيكون من دواعي سروري أن أخلع هذه البذلة.

ـ ارتداء الملابس ذاتها ليومين متتاليين لمسألة صعبة للغاية.

ـ كفى أرجوك! لقد انتهينا من الشجار منذ ليلة أمس. توقّف عن معاملتي كعدوّ بغيض عليك مواجهته.

فكر ملياً في سره: لستِ عدواً بل خطراً.

وفي اللحظة التالية تفوّهت بكلمات تحمل في طيّاتها تهديداً أكبر لمشاعره، فقالت: «أنا متأسفة بالفعل؛ فالخطأ كلّه يقع عليّ. لا، بل بعضه يقع على فيردي أيضاً. على كلّ حال، لا تلام على شيء أبداً. أعتقد أنني تجاوزت حدّي بالمجيء إليك دون إخطارك، وليس هذا فحسب، بل انتظرت منك أن ترحّب بي وتتعاون معي وتتكيّف مع هذا الواقع».

أحرجه كلامها، فقال: «يمكنني التكيّف مع أي ظرف يطرأ عليّ».

ـ حقاً؟ معظم الناس يقولون إنّه يستحيل التكيّف معي.

بلهجة متهكمة قال: «هذا هو التملّق بعينه».

ـ لا يمكنك أن تكون قاسياً لهذه الدرجة؛ سبق اعتذرت عمّا بدر مني.

ابتسم على مضض وعلّق بالقول: «تجيدين إفحام أي شخص».

إذا توقع أن تقول أي شيء إلا تقديم الاعتذار فقد أخطأ كثيراً.

رفعت ميريل الغطاء عن الطبق، ووجدت وجبتها مؤلفة من لحم دجاج وسلطة وكعكة ومربىّ وفاكهة وكريما مخفوقة. ثم سألته عن الكلبين: «ما اسمهما؟».

ـ ستي وجاكو. إنّهما كلبان مزعجان وبغيضان ولا أعرف السبب الذي يحملني على الاحتفاظ بهما.

ـ لأنك تحبهما بجنون.

قال باختصار: «هذا هو السبّب».

في تلك الأثناء كان ستي يراقبها عن كثب، وفجأة غاص في الصحن وأمسك بقطعة الدجاج بفمه ولم تتمكن من إيقافه.

صاحت بذعر: «لا تأكلها.. أعطني القطعة. يا لك من كلب شقي!».

خافت عليه من الاختناق بالعظمة. وتبع ذلك صراع عنيف بينهما، فهي تحاول إخراج قطعة الدجاج من فمه وهو يتمسك بها. وأخيراً ومن فرط يأسها غرزت ميريل أصابعها داخل فم الكلب وناديته بالقول: «هيا، أعطني إياها».

وصدر من الكلب صوت لا يشبه تماماً زمجرة الكلاب لكنه أشبه بعلامة احتجاج رقيقة؛ وكرّرت الطلب من جديد مع صوت ينم عن الألم. أخيراً تمكّنت من استرجاع قطعة الدجاج. فسألها جارڤيس وقد بدا وجهه متجهّماً: «هل عضّك؟».

ـ لاّ، لا أسميها عضة؛ لم يقم بذلك عن قصد، فهو لم يمزّق الجلد.

ـ دعيني أرى وأتأكّد من الأمر.

ثم قلّب يدها النحيلة بين يديه الكبيرتين القويتين وألقى عليها نظرة. وأخيراً تنهّد وأفلت يدها قائلاً: «أنت محظوظة. فهما ألطف كلبين على ظهر البسيطة، غير أنني لا أجرؤ على وضع يدي داخل فمهما عندما يأكلان».

ـ أعتقد أنني تصرفت بحماقة، لكنني رأيت مرة كلباً يموت اختناقاً بسبب عظام الدجاج ولا أريد أن يتكرر هذا المشهد أمامي.

ـ متى وقعت الحادثة؟

ـ عندما كنت صغيرة. حينها كنت مولعة بكلبي الصغير بوتس. لم يكن أحد قد حذّرني من الدجاج، فأطعمته بعضاً منه ومات حالاً بين ذراعيّ.

ـ ماذا عن والديك؟

ـ كانت أمي متوفاة في ذلك الحين.

ـ وأبوك؟

ـ حسناً؛ كان منهمكاً في عمله. وعندما كان يأتي إلى المنزل لم نكن نتحدث عن بوتس. في الواقع...

ولم تكمل كلامها، فسألها «ماذا؟».

ـ آه، لقد تذكرت.. جاء أبي ذات مساء واتجه فوراً إلى مكتبه للعمل. قائلاً: «أتمنى ألا يكون كلبك قد دخل إلى هنا مجدداً». لكنّ بوتس كان قد مات منذ ثلاثة أسابيع، وغاب ذلك عن ذهن أبي.

ـ لعلّه لم يعرف بأمر وفاته.. فحسب ما تذكرين كان كثير الترحال والسفر...

ـ كان في المنزل وقت الوفاة، وحين بكيت واساني وقال: (سيشتري لك والدك كلباً آخر). ويومذاك اعترتني نوبة من الغضب فهو لم يدرك أن بوتس كلب لا يعوّض ولا أريد بديلاً عنه. فالنسبة إليه بإمكان المرء أن يشتري بديلاً، على الدوام.

كان جارڤيس يراقب وجهها ويلاحظ ملامحه الناعمة على وهج الموقد. سألها: «هل ذكّرته بأنّ بوتس قد مات؟».

هزّت كتفها وقالت: «لم تسنح لي الفرصة لذلك، فقد خرج من الغرفة قبل أن أعطيه جواباً».

والتفتت صوب الكلبين ودندنت بصوت رقيق: «يا لكما من مخلوقين أحمقين!..».

ثم داعبت رأسيهما وهي تضيف: «يبدو أنهما كبيران في السن، كم يبلغ عمرهما؟».

ـ عشر سنوات. اعتنيت بوالدهما وبوالده من قبله أيضاً.

ـ إذن، لا تملك أيّاً من صغارهما للحلول مكانهما في المستقبل؟

هزّ كتفه قائلاً: «كما قلتِ بعض الكلاب لا تستبدل بأخرى».

أحضر عصيراً ثم قدم لها كوباً فارتشفا العصير في صمت جميل لم يرد أي منهما قطعه.

لم يزل شعرها رطباً من رذاذ البحر وكانت قد تركته مسدلاً على كتفيها ليجف قرب الموقد. شعرها هذا كان طويلاً جداً وأسود و... اعترف بينه وبين نفسه.. جميلاً للغاية. وتذكر تلك الكلمات المنقوشة على الحجر: «عينان خضراوان وشعر أسود». طرد الفكرة من رأسه، وراح يعاتب نفسه لتذكّره تلك الاسطورة والحجر المنقوش. لكن بات من الصعب عليه ألاّ يتذكر لأن حنّة تفعل ما بوسعها لتذكيره بذلك.

لم تكن حنّة الوحيدة التي جعلته يتذكر؛ ففي طريقة ما، انتشر الخبر في أنحاء الأراضي البرّية التابعة له وفي كل مكان توجّه إليه ذلك اليوم رأى نظرات ملؤها التساؤل والفضول في عيون مستأجريه ومستخدميه.

كانت ميريل تتطلّع إلى الصورة المعلقة فوق الموقد، وسألته: «من يكون هذا الرجل؟».

ـ إنه جدي. كان لواء في الجيش.

ـ يبدو لطيف المعشر.

ـ لم يعتبره الرجال لطيف المعشر بل مثيراً للرهبة والخوف.

لفتت انتباهه قائلة: «لكنني لست رجلاً. أراهن أن قصته مع النساء مغايرة تماماً. فمن الواضح أنه كان زير نساء.. يبدو هذا جلياً في عينيه».

نعم كان جدّه زير النساء والواقع أن هذه المرأة التي أمامه خُلقت للحب..

إلا أن اللورد الحالي كان شريفاً بالفطرة وحذره الشديد فوّت عليه الكثير من الفرص مع النساء مع أنّه يمتلك ما ترغب فيه النساء أكثر من لقبه. فهو في عزّ الشباب وبهيّ الطلعة ولديه حيوية وقوة جسدية؛ وكلّ هذا يستوقف النساء ويثير اهتمامهن. ولكن بين الوقت والآخر كانت تلوح في عينيه نظرة شيطانية ملؤها الاغواء تدلّ على أنه قد يكون شخصاً مختلفاً كلياً إن هو تخلّى عن خوفه وحذره، مما يظهر أنه حفيد الجنرال بشكل لا يقبل الجدل. لكنه لم يتخلّ عن حذره ولم ينجرف وراء نظراته لأنه لا يملك المال. لم يكن ليحقق

المراد مع هذه المرأة بالذات لأنه غير قادر على تحمّل النفقات والأعباء المادّية.
وللحظة ما، خامره شعور بالندم أو الأسف؛ لكنه أخرسه فالأولى به أن يحتفظ برباطة جأشه...

***

٤ ـ لا تعني نعم؟!

تمطت ميريل، وهي تستند على الأريكة، ثم استرخت بعفوية ولباقة وسألته بكلّ براءة: «أليست سارة هنا؟».

ـ لا، لقد انصرفت إلى منزلها في وقت مبكر.

تمتمت قائلة: «لقد أرحتني بقولك هذا، فأنا أخاف منها كثيراً».

أطلق ضحكة مدوية وهو يقول: «كنت أعتقد أنّ بإمكانك أن تتدبّري أمورك جيداً».

ـ وأنا اعتقدت هذا أيضاً.

ـ سارة صديقة قديمة لي وهي تدافع وتحامي بشدة عن ممتلكات لارن؛ وتنظر بعدائية إلى كل من يطمع في المكان. إنها تعتبرك غازية تريدين الاستيلاء عليه.

رشقته ميريل بقنبلة كلامية حين علّقت قائلة: «ولست أنت بمختلف عنها بشأن هذا الموضوع».

أجفله كلامها وقال: «لنتناسَ هذا الأمر. ربما لا تصدقين، ولكن لطالما عُرفت عائلة لارن بحسن الضيافة أيضاً».

ـ وعلى الدوام تدّعون أنكم تعرفون الفرق بين الضيوف والغزاة وتصيبون في التمييز بينهما.

ـ هنا تكمن المشكلة. فهذا القصر كان قلعة شيّدت لصدّ الغزاة. وأكثر ما كانت مهدّدة من الجهة الشمالية. فهناك تمّ بناء مجموعة من القلاع على طول خط الساحل الشمالي وكانت قلعة لارن من ضمنها.

www.elromancia.com

- ولكن لمَ بنيت في البحر؟

- في الأصل لم تبن في البحر؛ ففي ذلك الزمن، كانت تلك الناحية جزءاً من البرّ ولكنها انجرفت مع مرور الزمن.

فكّرت ملياً وقالت: «من المستحسن تحصين الممرّ قبل أن يختفي كلّياً».

اكتفى بالقول بصوت فاتر: «أجل».

في عينيها لاحت نظرة ملؤها التساؤل والحيرة، ثم توضّحت لديها الصورة فأضافت: «هل أصبحتُ من الطامعين والغزاة مجدّداً؟».

همهم قائلاً: «عفواً».

لفتت نظره بالقول: «لا نستطيع القول إنه غزو أو دخول إلى المكان عنوة، فأنت من أنقذتني من الغرق».

وفجأة أخذت تضحك، فسألها: «ما الأمر؟».

- كنت أفكّر في منظري حينذاك.

توقفت قليلاً عن الضحك وتابعت تقول: «أتيت لأقتحم القصر وإذا بي أصبح كفأرة مبلّلة تسعى إلى النجاة».

ثم استلقت على الأريكة وتعالت ضحكاتها فيما كان يتأمّلها مأخوذاً. هناك إشراقة ما بداخلها، بل هو وهج ينساب إلى الغرفة ويملؤها ويشيع فيها دفئاً أكثر ممّا يشيعه وهج النار. للحظة تخلّى عن حذره والتقط عدوى الضحك منها.

بعد قليل قالت ميريل: «ربما كان يجدر بك أن تتركني أغرق في البحر كي تشعر بالأمان والراحة».

أجابها بمرارة وتهكّم: «أشكّ بذلك لأنك كنت ستقومين من قبرك في قعر البحر وأصبح مسكوناً بشبحك».

وافقته الرأي وقالت: «احتمال وارد وهو أمر تستحقّه. على أي حال، أعتقد أني سأعرّض نفسي للطرد مجدداً. أليست هناك هيئات أو منظمات بإمكانها مساعدتك من خلال تقديم الهبات والإعانات؟».

- بلى، هناك هيئات كهذه، لكن الاموال التي أحتاج لها تفوق قدراتها.

ثم صرف النظر عن الموضوع بإيماءة من يده وقال لغاية في نفسه: «آمل أن يكون فيردي قد أمتعك بحديثه ورفقته».

- لا ريب في ذلك، فرفقته ممتعة. اصطحبني إلى ذلك المطعم المجاور للدير، وفي الغد، سوف يريني فناء الكنيسة والمدفن.

بدأ يتحدث بفتور مجدّداً، وهو يسألها: «هل كشف فيردي لك كلّ أسراري أم لا يزال البعض منها طي الكتمان؟».

الحقيقة تقال إنه لم يكن هناك أسرار، ففيردي الثرثار والكثير الكلام رقيق الفؤاد يريد فعل ما بوسعه لمساعدة صديقه.

سبق له أن كشف لميريل حقيقة الوضع القائم، فقال: «الحقّ ليس على جارڤيس ولا هو مسؤول عن هذه الضائقة، إذ لم يكن هو من أودى بمملكته إلى التهلكة بل والده وجدّه اللذان بدّدا الأموال يميناً وشمالاً وتركاه ليحلّ المسألة وينقذ الموقف».

بيد أنّ ميريل أعقل من أن تردّد هذا الكلام على مسمع جارڤيس؛ فأجابته بحذر: «أخبرني أنّ أحوالك سيئة، لكنه لم يكن خبراً جديداً بالنسبة إليّ. كم من المال تحتاج لترميم هذا المكان؟».

- الله وحده يعلم! لا أسمح لنفسي بالتفكير في هذا الأمر. ولكن هناك ممتلكات أخرى إلى جانب القصر، كالأراضي الداخلية التي يحتاج مزارعوها إليّ لمدّهم بالمساعدة كونهم يقيمون في دائرة مملكتي الخاصة. في رأسي العشرات من المشاريع والخطط لمساعدتهم لكني لا أملك المال الكافي.

- إذن، يبدو أني أملك ما يكفي لتحقيق هذه المشاريع، فلمَ تقف ضدّي؟

لم يستطع إسكات الكلمات التي انطلقت من فمه بسرعة: «لأنك أتيت إلى المكان عنوة، طمعاً فيه».

ثم استدرك قائلاً: «اعتذر على وقاحتي».

- لا داعي للاعتذار، فقد كنت صريحاً.

- هناك سبب آخر، فأنت تعيشين في عالم وهمي منسوج من الأحلام

وليس عندك أدنى فكرة عن التكاليف الفعلية لهذه المشاريع.

هزت كتفها لا مبالية وقالت: «قد تكلّف بضعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية».

سألها ساخراً: «وبمقدورك دفعها؟».

ـ نعم، حالما أتزوج.

ـ ولنفترض أنه عندما تدفعين لي ثمن زواجي بك، تكتشفين أنه لم يتبقّ لك المال الكافي لتغطية نفقاتك، فماذا ستفعلين؟

كان الجواب ابتسامة ملؤها الاستغراب وكأنما وجدت كلماته غريبة ومضحكة. كانت ابتسامة امرأة ثرية ذكّرت جارڤيس بقولها السابق له عن عدم قدرته على رفض عرضها.

أجابت: «دعني أتدبّر الأمر بطريقتي. أعلم مقدار ثروتي المالية وهي كافية للحفاظ على مصالحكما المادية أنت وبندكت».

ـ بندكت؟

ـ بندكت ستين، وهو صديق لي يقيم في نيويورك، ويعمل في تصميم الأزياء النسائية. أعتزم تغطية تكاليف عمله كي يصل إلى المرتبة التي يستحق أي أن يكون على رأس قائمة المصمّمين المبدعين.

حملق بها وسأل: «وهل يكلّف هذا الكثير؟».

قالت بهدوء: «عشرة ملايين».

ـ من الجنيهات؟

ـ بل من الدولارات.

وفجأة نهض جارڤيس من مكانه واتجه إلى مكتبه محوّلاً وجهه عنها كي لا تلمح على محيّاه أي أثر لردة فعله القوية. كان يعرف من قبل أنها ثرية. وها هو يدرك أنها قادرة مالياً على أن تسيطر على ممتلكات عائلته وتحدث تغييرات في المكان.. ومن المستحيل أن يرفض عرضها واستيلاءها على المكان الا إذا وقف بوجهها الآن.

قال: «لقد حللت المسألة على أكمل وجه وببراعة فائقة ولم تفكّري

بالنتائج».

ـ أعرف ما يمكنني تحمّله من نفقات.

وكأنما هذا هو الاعتبار أو العامل الوحيد المهم.

قال لها: «أنا واثق من هذا. لكنك لا تعرفين ما لا يمكنك دفع ثمنه».

ـ لم أجد بعد الشيء الذي لا يمكنني دفع ثمنه.

علّق والانزعاج باد عليه: «حسناً، ها قد وجدته الآن».

انتفضت وتنبّهت قائلة: «لم أقصد...».

ـ أفهم قصدك. إذا انتهيت من تناول عشائك فاصعدي إلى غرفتك.

لدى دخولها إلى غرفتها علّقت ملابسها الجديدة واستحمّت سريعاً وارتدت قميص نوم من الساتان. ربما لم تكن تلك الملابس ملائمة لهذا المكان البارد جداً ولكنها أفضل من قميص نوم من الفانيلا عالي الياقة.

همّت بإطفاء النور عندما سمعت وقع أقدام ثقيلة في الرواق الخارجي. ولم تعد تسمع شيئاً لبعض الوقت، ثم انفتح باب غرفتها على مصراعيه محدثاً ضجة قوية ودخل جارڤيس وعلى وجهه نظرة من الغضب الشديد.

سألته بسخط شديد: «كيف تدخل من دون أن تدق الباب؟».

أرخى قبضتي يديه لكن وجهه بقي مكفهرّاً وأجابها: «جئت لأعرف من دخل إلى هذه الغرفة دون أذن مني. لا أتساهل أبداً مع المتطفلين الذين يدخلون عنوة إلى الأماكن التي تخصني».

ـ وما دخلي بهم؟ أنت من وضعني في هذه الغرفة.

ـ لا. اخترت لك الغرفة الخضراء.

ـ أليست هذه الغرفة الخضراء؟ هكذا إذن! لقد تساءلت عن سبب تسميتها الغرفة الخضراء وهي خالية من هذا اللون.

قال ببرودة: «هذه الغرفة للسيّدة لارن ولا يحقّ لك أن تكوني فيها. هل طلبتِ من حنّة إحضارك إلى هنا؟».

ـ بالطبع لا. كيف يمكنني ذلك ولم أعرف بوجود مكان كهذا؟.

اكتفى بالهمهمة وكأنه لم يصدّقها. فقالت: «أنت لا تصدّقني! أنا لا أكذب عليك».

ـ عذراً، فقد شككتُ...

ـ لا، لن أسامحك!

ـ لكنك امرأة تشعر أنّ من حقّها أن تذهب حيثما تشاء وكيفما تشاء. لم تخفي نيّتك في أن تكوني سيدة المكان وأن تتولّي زمام الأمور.

ـ أنا لم أفكر في هذا البتة! كفاك تضخيماً للأمور. كلّ ما قمت به هو تقديم بعض الاقتراحات. كنت أحاول مساعدتك فقط.

ـ هل طلبت منك أن تساعديني؟

ـ حسناً، ربما آن الأوان لتطلب مساعدة أحد، ومن غيري يقدر على مساعدتك؟

دقّق النظر في وجهها وهو يتساءل: «هل آخذ كلامك على محمل الجدّ؟».

تراجعت عن كلامها بسرعة وقالت: «لا؛ فأنت بعيد كل البعد عن رجل أحلامي».

ـ وأنا واثق من معرفتي بالرجل الذي تبحثين عنه. تريدينه مجرّد نكرة، لئلا يقف في وجهك.

قالت بانفعال: «أصبحنا متعادلين إذن، لأنك ستوافق بسرعة على إقدامي على الزواج برجل كهذا. حسبتَ أنه بإمكانك إبعادي عن فكرك في اليوم التالي».

ـ بهذه الحال لن يحصل أيّ منا على ما يريد. على كل حال، أنت تظنين أن بإمكانك تحقيق مرادك مهما كان الأمر.. وحتى لو أرسلت لك جواباً على الاعلان، فمن قال لك إنني سأرغب فيك عندما أقابلك؟

جوابها كان ابتسامة، فقد طرح السؤال الوحيد الذي تعرف جوابه، فهو سيرغب فيها إن هي شاءت ذلك. وكانت تعرف هذا تماماً. فهم معنى الرسالة وشعر باضطراب يسري في أوصاله. فثقتها بنفسها هي بمثابة قوّة

غريبة جارفة. وأكثر ما يثير قلقه معرفته بأنه يحقّ لها أن تثق بنفسها إلى هذا الحدّ.

لم تكن في وضع تُحسد عليه منذ قليل، لكنها وبطريقة ما فرضت نفسها واستعادت قوتها بإيماءة واحدة، ولولا الحاجز المادي الذي يقف بينهما، أي ثروتها المالية، لانجذب اليها بقوة وبشكل لا يمكن مقاومته وهي تدرك هذا، تباً لها!

قال متردّداً: «إن المرأة المحتشمة تستر جسدها».

ـ والرجل المحتشم لا يدخل إلى غرفتي بل يجدر به مغادرتها في هذه الساعة المتأخرة.

قال بهدوء: «ما أشدّ ثقتك بسلطتك المالية».

ابتسمت مجدّداً وهي تقول: «لكنك لا تنظر الآن إلى مالي بل إلى شيء آخر يا جارڤيس».

ـ إلا أنّ المال يبقى له الأثر الأكبر والدائم كما تعرفين، فهو الذي يجعلك تتصرفين بتعجرف وغطرسة. ذات يوم ستقعين على رأسك بسبب تعجرفك، وكلّي أمل بأن أكون شاهداً على سقوطك هذا.

ردّت بسرعة: «لا أظن أنك ستكون شاهداً على سقوطي إن كنت تنوي طردي خارجاً».

ـ أنا مستعد للزواج بك كيلا تفوتني الفرصة السعيدة لرؤية وجهك حين تجدين نفسك في مأزق لا يمكنك الخروج منه.

نظرة من التحدّي لاحت في عينيها وهي تقول: «لطالما كنت ولم أزل قادرة على معالجة المشاكل وانتشال نفسي من الورطات».

علّق باشمئزاز: «آه، أجل، هذا عندما يتحلق حولك وخلفك جيش من الخدم. ولكنك وحدك هنا وبرفقة رجل لا تعجبينه».

قالت برقة: «إلا أنك تريدني وترغب فيّ».

ـ إذن أنت حمقاء لأنك تضعين نفسك تحت رحمتي.

ـ افهمني يا جارڤيس، لم ولن أضع نفسي تحت رحمة أي رجل.

لم يجب، إلا أنه وقف يراقبها، وفجأة أخذت ثقتها بنفسها تخونها. فهذا الرجل معجب بها، ففي عينيه وميض أخافها وأدركت فجأة أن النار وراء ظهرها وأن جسمها بلا شك ظاهر بوضوح من خلال قميص نومها. لكنه كان محقاً في قوله؛ لقد خطت إلى مملكته وحدها ولا معين لها سوى فطنتها وذكائها، وربما لن يكون ذلك كافياً.

قالت: «يجدر بك الذهاب الآن».

ـ وإذا لم أفعل؟

أجابت بشكل قاطع: «عندها، ربما يكون قد آن الأوان لانتقل إلى الغرفة الخضراء».

أحست بأنها الطرف الأضعف، وهذا إحساس لم تألفه من قبل وبات من الصعب عليها أن تتحمّله أو تعتاد عليه.. مرّت أمامه مبتعدة عنه قدر الامكان، لكن يده برزت فجأة وامتدّت بسرعة لتمسك بذراعها. قالت بحدّة: «هلاّ تركتني من فضلك؟».

ـ أفضّل ألا أفعل ذلك.

ـ وماذا عن احترامك لمقامك المرموق كجنتلمان انكليزي؟

جوابه كان ضحكة استفزازية غريبة على مسمعها، وأرفقها بقوله: «أي مقام هذا الذي تتحدثين عنه؟ فأجدادي قاتلوا وأخضعوا سكان هذه المنطقة واحتلوها. كلّ ما كان يحلو بنظرهم كان يصبح ملكهم ولم يراعوا مشاعر الآخرين. صدقاً أقول لك إنّ التصرف بنبل وبتهذيب ليس من شيمنا».

ساد الصمت ونظرت إلى عينيه محاولة ألا تدعه يلاحظ مدى اضطرابها، فقلبها كان يخفق بشدة، ولكن ليس من الخوف بل من شيء آخر.

وأخيراً ترك ذراعها بتباطؤ شديد ورجع إلى الوراء. كانت أنفاسه تتلاحق بسرعة، وتساءلت في سرّها إن كان باستطاعته سماع دقّات قلبها المتسارعة.

توقف عند الباب وألقى نظرة سريعة عليها وقال: «غداً سترحلين». ثم خرج. فوقفت ميريل ساكنة لا تتحرّك وهي تتطلّع إلى الباب المُغلق،

وراحت تخاطب جارڤيس، في عقلها: «لا أعتقد ذلك، لن أرحل».

في صباح اليوم التالي تناولت الفطور بمفردها، فقد سبقها جارڤيس في تناول الطعام وخرج من القصر؛ ولم تدر لماذا خامرها شعور بأنّه يتجنّبها.

لم تزل تحسّ بوجوده، ولم يفارقها هذا الشعور طوال الليل. حتى أنها استفاقت في الساعات الأولى مقتنعة بأنه يعانقها..

ابتدأ الأمر بإظهار القوة بينهما ممّا دفعها إلى التراجع، لكنه هو الذي تراجع لأنه خائف من قوة مشاعره. كاد يعانقها لكنه لم يجرؤ على ذلك لأنه لم يكن واثقاً من أنه سيتوقف عند العناق.

كان بإمكانها أن تغويه وتدفعه إلى عناقها، لكنها لم تفعل ذلك. أهو الجبن؟ ربما؛ أو ربما كان شعوراً غريزياً يمنعها. ولكن سيحدث ذلك حتماً في يوم ما، يوم قريب.

اختارت من بين الملابس التي اشترتها حديثاً بنطالاً زاهياً وقميصاً واسعاً نقشت عليه رسوم ووضعت منديلاً يلائم لون البنطال؛ ثم تأمّلت ملابسها التي أرادت أن تكسب المعركة ضده بارتدائها وشعرت بالرضا والراحة.

ولم تغب عن وجه حنّة علامات الاستحسان أيضاً.

قالت لها ميريل: «لم يجدر بك وضعي في غرفة السيدة لارن. لم يكن راضياً البتة».

ـ آه، هو!

شخرت حنّة وكأنما تستخفّ برأي مستخدمها.

قالت ميريل وفي نبرة صوتها دعوة إلى التآمر: «أعتقد أنه يفضّل انتقالي إلى الغرفة الخضراء».

ـ حسناً، قد يسنح لي بعض الوقت لنقل امتعتك هذا الصباح؛ لكنني مشغولة للغاية.

ـ لا أودّ تعطيلك عن العمل.

أضافت حنّة تقول: «اتصل السيد آشتون وقال إنه سيقلّك في سيارته في غضون نصف ساعة».

تناولت ميريل فطورها بسرعة، وفي وقت قصير كانت جاهزة. وما إن خرجت من الغرفة حتى شعرت بوجوه جميع أفراد القصر. معظم غرف القصر كانت مقفلة بسبب الحالة الاقتصادية البائسة. تفرّست الأعين في وجه ميريل عند ظهورها ثم اتجهت الأنظار مجدّداً إلى باب المكتبة المفتوح الذي كانت تسمع من خلفه همهمة أصوات. تمتمت حنّة قائلة: «لقد أتى بعض المستأجرين لرؤية اللورد بعد سماعهم النبأ».

ـ أيّ نبأ؟

لم يكن هناك من داع للاجابة بشفتيها، فنظرتها كانت كافية. اقتربت ميريل من الباب وتمكنت من رؤية جارڤيس وهو يقف قبالة خمسة رجال؛ وقد كان أحدهم، وهو رجل ضخم الجثة، يتحدث نيابة عن الآخرين: «أخبرتني زوجتي أن هذا أفضل خبر سمعته منذ سنين عديدة».

أجابة جارڤيس بارتباك واضح: «لا أعلم تماماً ما الذي سمعتماه يا هال».

ـ ماذا؟ إنني اتكلم عن هذه الوريثة الثرية التي جاءت في العاصفة حسبما يقال، فإن لديها المال الكافي لانتشالنا جميعاً..

ـ هال...

ـ سوف يهجع الكثيرون منا إلى النوم وهم سعداء.

قال جارڤيس بلطف: «لا تتوقع الكثير ولا تعتبر هذا الأمر صحيحاً، فهذا موضوع لم يحسم بعد».

وسمعت صوتاً آخر من الخلف يقول: «سنترك التفاصيل لك؛ لن نتفوه بكلمة أخرى إلى أن يتم الاتفاق على كل شيء؛ حسناً؟».

عندما اقتربا من الباب تحرّكت ميريل بسرعة إلى الوراء ولكن ليس بما فيه الكفاية، فقد رأوها ولم يعد هناك خيار آخر سوى التقدم إلى الغرفة. حاولت ألا تنظر إلى عينيّ جارڤيس مباشرة، لكنها كانت تدرك أنه متوتر من فرط سخطه واستيائه.

خاطبته بهدوء لم تكن تشعر به: «لورد لارن، آسفة على إزعاجك».

نظر إليها الرجال الخمسة وكأنما طلعت من البحر في تلك الدقيقة. فابتسمت للجميع ومدّ جارڤيس يده لها مصافحاً من باب اللياقة لا غير.

سارعت تقول: «عليّ الذهاب الآن لأتفقد سيارتي».

لكن جارڤيس استوقفها قائلاً: «آنسة وينترز، أيمكنني التحدث إليك قبل أن تذهبي؟. لن يستغرق الأمر سوى دقائق معدودة. سأوافيك إلى الحديقة، حسناً؟».

لم تشأ سماع ما ودّ قوله لها قبل أن تفكّر في الأمر ملياً. فقالت باستعجال: «هل تمانع كثيراً إذا أجلّنا الحديث كيلا أبقي فيردي منتظراً؟».

وأسرعت في الخروج قبل أن يقول شيئاً، لكنها أحسّت بشعور من الدهشة والرهبة يلفّ الآخرين وتساءلت بينها وبين نفسها: منذ متى لم يطلب أحد من اللورد لارن أن ينتظر؟.

واصلت شركة رفع السيارات عملها منذ أن انحسرت المياه. وكانت السيارة متوقفة على برّ الأمان وهي تبدو في حال سيئة من جرّاء ما تعرضت إليه. أخرجت ميريل أمتعتها من صندوق السيارة الذي نجا بأعجوبة. وبعدئذٍ، تناولت هي وفيردي الغداء على نفقتها ثم ذهبا إلى المصرف حيث جرت الأمور على منحى مُرضٍ. ففي البدء شك مدير المصرف في أمرها، وما لبث أن أجرى بعض الاتصالات بنيويورك، ومنذ تلك اللحظة تغيّر تصرفه وبدا أكثر احتراماً وتلبية لرغبات ميريل. ولدى انصرافها، ناداها بالآنسة وينترز، وزودّها بدفتر شيكات مؤقت مع تعهّده بتجهيز دفتر شيكات أصلي في اليوم التالي.

لم يكن هناك أثر للمياه على الممر حين وصلا إلى الشاطىء؛ ثم ما لبثا أن شاهدا سيارة جارڤيس الجيب القديمة تشق طريقها بصعوبة. أوقف جارڤيس السيارة عندما رآهما واتجهت ميريل إلى نافذة سيارته وسألته: «هل أنت غاضب مني؟».

أجاب بكل تهذيب: «لا، أبداً. لكننا يجب أن نتحادث».

ـ موافقة.

وقبل أن تعرف ماذا كان ينوي فعله، مرّت بسرعة من أمام السيارة وقفزت إلى المقعد الأمامي.

وقالت: «هيا انطلق. وداعاً يا فيردي».

كان فيردي ينقل أمتعتها إلى الجيب وما لبث أن انكفأ بعيداً وابتسامة عريضة تلوح على وجهه. لم يتحرك جارڤيس، وقال: «لا أعتقد أن هذا أفضل...».

ـ بالتأكيد إنه أفضل مكان لنتحدث فيه. كيف يمكننا التحدث في القصر؟ فللجدران آذان. نحن هنا وحدنا تماماً وباستطاعتك أن تقول لي ما هو رأيك بي بالضبط.

قال بتجهم وهو يدير محرك السيارة: «أنت محقة».

لم تنبس بكلمة واحدة إلى أن أصبحت المنطقة المكتظة بالمباني خلفهما.. كانا يندفعان قدماً إلى الأراضي المفروشة بالحشائش والأعشاب المنبسطة على مدّ النظر. وسرعان ما لمحت تغييراً في المكان الذي خففت من وعورته تموّجات مائية جميلة وقد ترقرق الماء هنا وهناك فيما انسابت الانهار الصغيرة وتغلغلت في أنحاء الأراضي الريفية الهادئة.

سألته: «أكنت أقود سيارتي في هذا المكان عندما التقينا تلك الليلة؟».

ـ لا. فقد غادرنا الممر.

ـ هلاّ توقفت للحظة؟

عندما أوقف السيارة القديمة ترجّلت منها بخفة وسرعة وتوجهت إلى حيث يمكنها التطلّع إلى الوادي. كلّ شيء بدا رائعاً، فالأرض كانت عبارة عن أقسام جزّأتها الشجيرات والاشجار الباسقة والأسوار الحجرية وكأنما نمت وتكاثرت بشكل طبيعي.

جاء جارڤيس ووقف إلى جانبها، لكنه لم يتكلم واكتفى بمراقبتها.

وأخيراً قطعت حبل الصمت بينهما وسألته بصوت خفيف وناعم: «أكلّ هذه الأراضي ملكك؟».

ـ بعضها. أملك بعض المزارع وأؤجرها.

قالت متأملة: «لم أر في حياتي زهوراً بريّة كهذه؛ ففي الواقع لا أرى عادة أي شيء طبيعي».

علق دون أن يحمل أي ضغينة في قلبه: «لا، فأنت لا تمتين بصلة إلى هذا العالم، فعالمك كل شيء مستنبت فيه اصطناعياً».

ـ وأنا أعتقد هذا أيضاً. المشكلة في هذه الحال تكمن في تقارب الفصول إذ تبدو كلّها متشابهة.

ـ للفصول هنا أهمية كبرى وهذا الفصل هو الأجمل حين ينقض الربيع على الصيف وتنتهي النعاج من الوضع ويبدأ موسم البذار والزرع.

قالت بكثير من الاهتمام: «لا أعتقد أن الزراعة مورد رزق كافٍ، أليس كذلك؟».

سألها ممازحاً ولكن بلهجة ملؤها الود: «كيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟».

استدركت قائلة: «هذا ما اعتاد والدي قوله وليس أنا».

لو رآها والدها على هذا النحو لقال لها كلاماً لاذعاً. ولكن حقائق كثيرة غابت عنه ولم يدرِ بها.

سألها جارڤيس: «لِمَ تبتسمين؟».

ـ التحدّث عن والدي جعلني أتذكر أشياء كثيرة؛ فالامكنة الهامّة في نظره كانت المدن وآبار النفط المتواجدة خارجها.

ـ ومن أين يأتي الطعام باعتقاده؟

ـ من السوق طبعاً؛ وهو معلّب ومحفوظ.

أخذ جارڤيس يتكلم بغضب قائلاً: «لِمَ تقولين هذا؟ فمن بين..».

ثم لمح في عينيها نظرة ملؤها العبث والتظاهر بالجدّ وخامره شعور غريب بالسعادة والسرور، وقال: «بالطبع! اعذريني فأنا لا أتمتع بأي حس فكاهي».

ـ هراء! بل أنت تتمتع بهذه الصفة.

ـ لا أفهم غالباً مغزى النكتة، إلا أني أعتقد أنها تتكلم عني وأنا من يجب

أن يُضحك عليه.

سألته بجدّ هذه المرة: «ولكن، ألا تعتقد أن النكتة يمكن أن تكون موجهة لك وليس عليك؟».

ـ لا، لا يمكن أن تكون كذلك. فالحقيقة تتربّص بنا دائماً مجردة الضحك والفكاهة من كلّ مغزى.. هذا هو رأيي في الموضوع. حان الوقت لأكمل طريقي، فهناك أشخاص يجب أن أراهم.

ـ وهل سأكون عثرة في الطريق؟

ـ وهل جوابي مهم؟ هل تمتنعين عن مرافقتي إذا قلت نعم؟

ـ هيا بنا إذن.

* * *

٥ ـ الساحرة الجميلة

عندما صعدا إلى سيارة الجيب أدار جارڤيس السيارة عائداً من حيث أتى. سألته ميريل: «ماذا عن الأشخاص الذين كنت تودّ مقابلتهم؟».

ـ باستطاعتهم الانتظار يوماً آخر.

ـ هذا بسبب وجودي معك. لا تريد أن أعرف أشياء كثيرة، أليس كذلك؟

ـ عرفت الكثير حتى الآن. ولكن لا بأس.

اقتربا من القرية ثانية، وبدلاً من أن يتبع السير، توقّف قرب مبنى خشبيّ الدعائم حيث علّقت لافتة كُتِب عليها الزنتغ دوغ.

ـ أعتقد أن هناك شخصاً يحاول لفت انتباهك.

اندفع باتجاههما كهل تبدو على وجهه أمارات الإرهاق والتّعب وخاطب جارڤيس قائلاً: «يا لحظي السعيد؛ لقد يئستُ من انتظارك في المكتب».

ـ متأسف يا أندرو على هذا الازعاج. هذه...

بات واضحاً أنّ أندرو علم بوجود ميريل في المنطقة، فابتسم لها.. قال: «أريد أن أحدثك عن بعض الأمور البسيطة...».

ـ الوقت ليس مناسباً...

ـ عشر دقائق فقط. وعدتُ باتيس بإعطائه جواباً اليوم. هل تذكر الكفالة من البنك؟ أعلم ما اتفقنا عليه ولكن يجب أن نساعده للتغلّب على مشاكله؛ لمدة ثلاثة أشهر...

www.elromancia.com

كانت تفضّل البقاء والاستماع إلى الحديث، لكنها شعرت أنّ جارڤيس يحترق بجمر النيران وأشفقت عليه. بدا كرجل مكبل بالسلاسل فالمصاعب تنهمر عليه من كل حدب وصوب.

ابتعدت ميريل عنهما ثم توقفت عندما أصبحت أمام منظر جميل.. أخذت تتطلع إلى الوديان المغمورة بنور الشمس.. وسمعت هاتفاً يقول: «أنا أنتمي إلى هذا المكان».

نظرت حولها بإمعان لترى من اين أتى هذا الصوت، الا أنها كانت بمفردها. فالكلمات قد لمعت في خاطرها دون سابق انذار وراحت تتردّد وتنطلق مع النسيم العليل. خاطبت نفسها قائلة: هراء! بالطبع لا أنتمي إلى هذا المكان. اسألي جارڤيس وسوف يجيبك. لعلّه سيطلق النار على باعث الرسالة أيضاً. لا شك أنّ المكان جميل وأودّ البقاء فيه لبعض الوقت، لكني لا أنتمي إليه لأن... لأنني لا أريد ذلك..

حاولت أن تستعيد صورة حياتها المرحة والممتعة في نيويورك ولكن عبثاً لأنها لم تستطع أن تتذكر. وتساءلت: من كانوا؟ كيف كان مظهرهم؟ الوجه الوحيد الذي استطاعت تمييزه هو وجه الرجل المتلهف والمحتاج إلى مساعدتها والذي سرعان ما يتخلى عنها.

ظهر جارڤيس وراءها وهو يقول: «حسناً، لقد رحل».

لم تعرف كم من الوقت مضى وهو واقف هناك يراقبها. وأضاف قائلاً: «هل أنت مستعدة للذهاب؟».

ـ دعني انتهي من تأمل هذا الوادي! إنه مشهد جميل بالفعل.

ـ لكنك رأيته أجمل عندما كان كل شيء مغطى بالثلج.

ـ سبق أن رأيته عندما لم يكن منظره مبهجاً على الاطلاق. لا أستطيع أن أصدّق أن كل هذا حدث منذ يومين فقط.

قطّب وجهه متسائلاً: «أنت متأكدة...؟ أجل أنت محقّة؛ لقد مضى على مجيئك يومان فقط».

أضافت بينها وبين نفسها: يومان ومئة عام.

قال لها: «أقدّر لباقتك وحسن تصرفك عندما تركتنا وحدنا».

ـ هل يقوم كارفر بعمله كما يجب؟ هلّ يفيدك في شيء؟

ـ عذراً؟

ـ لا شك أنني إنسانة فضولية، لكنك في مأزق وهو يعلم ذلك، فلماذا يحاول إغراقك أكثر؟

ـ إنّها مجرّد كفالة لمدة ثلاثة أشهر فقط.

ـ وهل سيدفع السيد باتيس هذه الكفالة؟

تردّد وأجاب بارتباك واضح: «لقد مرّ بظروف صعبة مؤخراً ولن يساعده أحد سواي».

ـ أنت بمثابة أب لهم بالفعل، أليس كذلك؟

وافقها القول وأجاب: «إنهم بحاجة للمساعدة. وما من أحد غيري مستعد لمساعدتهم».

ـ وإذا لم يتمكن باتيس من دفع الكفالة فستقع الكارثة عليك. لا أعرف التفاصيل، لكني أعتقد أنك موشك على الانهيار.

ـ آنسة وينترز، أريد منك أن تفهمي أنني لن أتزوجك. قراري هذا نهائي وحاسم.

تنهّدت وقالت: «واأسفاه! يبدو أنني أفقد قدرتي على تحريك المشاعر».

لم يقل شيئاً، ثم وكأن الكلمات انتزعت منه انتزاعاً: «تعرفين أن هذه ليست الحقيقة».

كادت تقول إنها بالفعل تعرف، ولكنها كانت تعلم ما الذي يجب أن يقال أو لا يقال. ولبثا صامتين لبعض الوقت.

فجأة اكفهرّت السماء وكأن الشمس البهية التي أشرقت على المكان منذ لحظات لم تسطع قط. وتساءلت: «كيف يمكن أن يحصل هذا التغيير وبهذه السرعة؟ فها هي السماء تمطر.. لا اصدّق ما تراه عيناي».

ـ لو كنتِ تعيشين في هذا المكان، لصدّقت الأمر بسرعة. فهذه المنطقة مشهورة بأمطارها.

ـ إنها صالحة للزراعة إذاً.

ـ ممتازة، لكنها لا تصلح كمنتزه. آه، تباً!

فالصوت المزعج والباعث على الكآبة الآتي من محرّك السيارة رافقهما على طول مسافة الميل الأخير وتسبّب في إيقاف السيارة هي ترتجّ بشكل مروّع.

دمدم قائلاً: «ابقي مكانك».

ثم قفز من السيارة ورفع غطاء المحرّك. تبعته ميريل في الحال، فعاتبها قائلاً: «قلت لكِ أن تبقي في السيارة».

ـ وأفوّت على نفسي فرصة الغرق حتى الموت للمرة الثانية؟ بالتأكيد لا! ما المشكلة؟

اشار إلى المحرّك الذي كان يتصاعد منه الدخان بشكل ينذر بالسوء وأجاب فاقداً صوابه: «لا أدري ولكن هذا الأمر يتكرر المرة تلو الأخرى. لحسن الحظ هناك مرآب في تل غراندز».

ـ ألم نمرّ بها في طريقنا إلى هنا؟ لا أعتقد أنها تبعد أكثر من ميل.

ـ هذا صحيح، لكننا عالقان هنا في سيارتنا المعطلة.

ـ لن نبقى كذلك إذا دفعناها إلى الأمام.

ـ دفعناها؟ نحن؟

كان عليها أن ترفع صوتها لكي يعلو فوق صوت المطر الهادر فقالت: «بإمكانك البقاء هنا معي ومبادلتي الأحاديث اللطيفة أو دفع هذه السيارة إلى تل غراندز».

لم يتابع الجدال بل ذهب إلى مؤخرة السيارة وتبعته ميريل على الفور حيث وضعت كتفها على الزاوية الثانية استعداداً للانطلاق. أخذا يتقدّمان ببطء شبراً شبراً إلى أن لاحت أمامهما تل غراندز. قال جارفيس وأنفاسه تتلاحق: «يمكننا أن نستريح برهة».

أجابته لاهثة: «الراحة للضعفاء والجبناء».

حملق بها وقال: «حسناً، سنكون منهم. فنحن الضعفاء لا نمتلك

عضلات قوية مثلك».

أخذت تضحك وشرقت في الحال حين دخلت مياه المطر إلى فمها.

ناشدته قائلة وقد أصيبت بنوبة من السعال: «لا تفعل ذلك، آه! يا إلهي».

ضرب بيديه على ظهرها قائلاً: «لا تخافي!».

فتهادت وتشبثت به ثم قالت لاهثة: «حسناً، أصبحت الآن بخير، فلنتابع سيرنا».

أشار إلى الطريق الممتدة أمامه وقال: «لا داعي لذلك، فالشاحنة المتجهة صوبنا هي لمايك صاحب المرآب. يا لحسن حظنا لأنه آت من هنا!».

بعد دقيقة، انضم مايك إليهما وصفّر عندما رأى الجيب. صعدت ميريل إلى الشاحنة بينما أعانه جارفيس في تثبيت السلسلة لقطر السيارة وتوجهوا بعدها نحو القرية.

لدى وصولهم إلى المرآب قال مايك بعد إلقاء نظرة قصيرة فاحصة على الجيب.

ـ يلزمني بضع ساعات لتصليح السيارة. أتريدان الذهاب إلى المنزل بسيارة أجرة؟

أجاب جارفيس: «لا فائدة من ذلك، فقد فات الوقت وانقضى بعد الظهر حيث كانت حركة المدّ والجزر لا تزال خفيفة».

وأضاف مخاطباً ميريل: «لكنه يجدر بك الذهاب. سأتصل بفيردي ليقلّك بقاربه».

إلا أنها هزّت رأسها وأسنانها تصطك وقالت: «الثياب الجافّة هي كلّ ما أحتاج إليه.. هذا إذا تمكّنتُ من الحصول على حقائبي وعلى مكان أبدل ثيابي فيه..».

دلها مايك على فندق صغير وهناك استأجرت غرفة مرفقة بحمّام صغير، قضت فيه نصف ساعة.

لأن حقائب ميريل الأنيقة مضادة للمياه، وجدت ثيابها بحالة جيدة

واختارت كنزة سميكة وتنوّرة خضراء، وسرّحت شعرها الأسود الطويل المسترسل على كتفيها. ولأنه لا يزال مبللاً، تركته منسدلاً ونزلت على الدرج في الوقت الذي كان فيه جارڤيس يدخل من الباب الأمامي.

كان المطر ما يزال ينهمر بشدة في الخارج فتبلل شعره وسترته أثناء الوقت القصير الذي استغرقه ليصل إلى الفندق. اهتمت به السيدة هيلمز صاحبة المكان أكثر من اللزوم، وناولته منشفة لكي يجفّف شعره. فرك شعره بالمنشفة بقوة ورفع رأسه ليستعيد أنفاسه فرأى ميريل واقفة أمامه. لم يكن قد لاحظ وجودها سابقاً، ففقد رباطة جأشه وكأنها مثلت أمامه بقدرة ساحر.

سألها: «هل تشعرين بأي تحسّن؟».

ـ أجل، بما أنني لم أعد مبلّلة.

علّقت السيدة هيلمز بضحكة خافتة دافئة وأرفقتها بالقول: «بدوتِ كمن أوشك على الغرق».

قالت ميريل بخبث: «إنها غلطة اللورد لارن. أعتقد أن هناك قاعدة عامة تقول إنه يتوجب علي الغرق كلّما التقيت به».

علّق جارڤيس على قولها هادراً: «انتبهي واحترسي إذاً».

ـ تقصد أن تقول: ارحلي. أليس كذلك؟

أجابها بلهجة تخلو من الحقد الذي لمسته قبلاً: «ليس من داعٍ لأقول لكِ ما أعنيه».

ـ ماذا حلّ بالسيارة؟

ـ ستكون جاهزة في الساعة الثانية صباحاً.

ـ لا ريب أن الأوقات المناسبة من حصتي ونصيبي!

ـ هل أطلب لك سيارة أجره؟

ـ لا، ولكن تستطيع أن تقدم لي شيئاً آكله.

وسرعان ما سمعا السيدة هيلمز وهي تدندن قائلة: «الطعام سيصبح جاهزاً خلال خمس دقائق. حضّرت لكما طاولة قرب النار».

في مثل هذا الوقت المبكر من السنة يخلو المكان عادة من السياح. ولهذا

وجدا نفسيهما وحيدين في الفندق، نظرت ميريل حولها وهي مأخوذة بدعائم السنديان وبقدم البناء.. ثم أحسّت بأن جارڤيس ينظر إليها وقرأت في عينيه كلمة مدللة، وبغضب شديد انضمت إلى السيدة هيلمز في المطبخ.

إنما لحاقها بهذه السيدة لم يكن بالخيار الأفضل، فصاحبة الفندق أخذت تعاملها كضيف من العائلة المالكة. وعندما وضعت المزيد من الشاي على الصينية قالت ميريل: «سآخذ الصينية».

ثم لاذت بالفرار.

وجدت جارڤيس متمدّداً على مقعد قديم من خشب السنديان، قرب النار وقد بدت عليه آثار التعب والإرهاق. كان رأسه ملقىً على ذراع المقعد وهو يغطّ في نوم عميق. وهو في هذه الحال، تمكنت من رؤيته مجرّداً من أي تعبير ولاحظت أن عمره يبدو أكثر من ثلاثة وثلاثين عاماً بسبب التوتر النفسي والقلق.. فحول عينيه بدت مظاهر التعب وكأنه لم يحظ بالراحة والنوم. في تلك اللحظات لم تشعر ميريل سوى بالحنوّ والعطف عليه، إذ رأته مسحوقاً بالهموم والمشاكل التي سبّبها الآخرون.

تعمّدت إحداث ضجة وهي ترتّب الصينية كي يستفيق ولا يجدها تنظر إليه. وسألته بعفوية بينما كان يفرك عينيه: «كيف تحب أن تشرب الشاي؟».

ـ أفضّله مركزاً مع قطعتين من السكر.

صبّت الشراب في الكوب كما طلب منها أن تفعل وناولته إياه. وتنهّد بارتياح وهو يرشف الشاي ثم قال: «أعتقد أنك سمعت كلّ ما قيل في المكتبة هذا الصباح. هل استمتعتِ جيداً وضحكت بما فيه الكفاية؟».

ـ أنا لم أضحك بل وجدت الأمر مرعباً لأنه يعني الكثير لهم.

نظر إليها بسرعة، فقد نطقت بالكلمة ذاتها التي قالها لنفسه وذعر لهذا التوافق والانسجام بين أفكاره وأفكارها.

دخلت السيدة هيلمز بصخب وهي تحمل الكثير من الأطعمة ووضعتها على الطاولة بينهما. ولم تخرج من الغرفة إلاّ بعدما ذاقت ميريل بعضها.

وأقرّت بأنها شهية بالفعل.

خاطب جارڤيس ميريل بالقول: «هل تعرفين لَمَ تهتم لرأيك إلى هذا الحد؟ أتدركين مدى الضرر الذي ألحقته بهم بعد أن منّيتهم بالآمال والأحلام؟».

ـ أنا منّيتهم بالآمال؟! من نشر قصة وصولي إلى هنا؟ بالطبع ليس أنا.

تنهّد وقال: «إنها حنّة؛ أعلم ذلك. فهي تعتقد أن الأمر بهذه البساطة».

ـ هي تفكّر كالآخرين تماماً؛ فالجميع يعتقدون أنه سنحت لك فرصة عظيمة لا تفوّت لتنقذهم من الورطة المادية الواقعين فيها، وإذا لم تستغلّها فلن يتفهّموا الأمر.

ـ ما عليّ القيام به إذاً هو محاولة إفهامهم وإقناعهم بأنه لم تُتح لي فرصة كهذه وبأننا التقينا أنا وأنتِ ورأينا أنه ليس باستطاعتنا أن نتفق، وسأقول لهم إني لم أعجبك.

نظرت إليه ورأت على ملامح وجهه الجانبية معالم الحدّة وعدم التهاون واللين، فسرت قشعريرة في بدنها وقد تذكرت الليلة الفائتة. ثم قالت متأملة: «وهل يصدقون هذا الكلام؟ فهم يعتقدون أن النساء يتهافتن للزواج باللورد لارن».

ـ باستطاعتك إخبارهم بأنهم مخطئون. أليس كذلك؟

ـ سيكون لهذا الأمر انعكاس سلبي عليك. أعتقد أنه من المفترض أن تستخدم كل ما لديك من سحر وإغراء لكي تقنعني.

أدرك جارڤيس صحة هذا الأمر وهو يتأوه تألماً. فقد بات قلقاً ومتأثراً بسبب مخاوف المستأجرين من جهة وثقتهم اللامتناهية به وبقدرته على إنقاذهم من جهة أخرى. ربما من أجلهم وجب عليه أن يسير في هذه الخطة المرعبة المرسومة أمامه. وهي أوقعت في نفسه الرعب بالفعل، فمنذ حمل اسم اللورد لارن أصبح يتحكم بكل شيء ويمارس سلطته على أرضه وشعبه، ولكن هذه المرأة تهدد سلطته بكلّ ما أوتي لها من سبل.

قالت متأملة: «أقلّ ما يمكنك فعله هو أن تحاول إنقاذهم فانت مدين لهم ومن العار ان تجعلهم يعتقدون أنك لست بقادر على فعل ذلك».

هدر بلهجة قاسية: «أنت مستعدة أن تتخطيّ حدود المنطق والمعقول والمقبول».

ضحكت قليلاً وقالت: «الغريب أن الناس يقولون لي الأمر ذاته دائماً».

تدلّت خصل شعرها إلى الأمام، فأرجعتها إلى الوراء وراحت تلفّ شعرها الطويل حتى أصبح مثل الحبل الطويل المجدول ثم ما لبث أن تهدّل ثانية.

قالت: «من المؤسف أنني أتيت في طقس ماطر، فهذا يذكّر الناس بالأسطورة ولا يرونني على حقيقتي».

وافقها الرأي وقال وهو يفكر ملياً: «أجل، لا بدّ أن يكون الأمر كذلك».

بدأ دفء النّار يصل إليه، فاسترخى وألقى محاذيره جانباً مع أنه كان يرى أن هذا ليس صائباً؛ فسألته: «من كانت تلك المرأة في الواقع؟ ذكرت لي حنّة شيئاً ما عن امرأة فرنسية».

ـ هذا صحيح؛ تدعى مارغريت دي فندان، الابنة الوحيدة لواحد من أكثر الرجال ثراء في فرنسا. جاءت ومعها دوطتها التي قدّرت بمبالغ خيالية. وبعد سنة، عندما توفي والدها، ورثت كلّ شيء.

أكملت ميريل متسائلة بمرح: «وهل انقذت العائلة؟».

ـ فيما يختص بالأموال، نعم. كانت تلك المرأة جريئة وذات عزم وتصميم.

وأضاف مبتسماً: «مثلك تماماً».

ـ ولكن الناس يقولون عني: (عنيدة وحرون كالحمار).

ـ أعتقد أن هذا ما كان يقوله عنها والدها أيضاً. لم تكن عنيدة وجميلة فحسب، بل كانت ساحرة.

ضحكت وقالت: «لا، أنت تمزح».

ـ أنا لا أمزح. اختفت فجأة.

ـ تعني أنها تبخّرت في الهواء أثناء العرس؟!

ـ لا؛ بقيت لمدة سنتين وأنجبت ولداً ثم اختفت فجأة ولم يعلم أحد ماذا حلّ بها. نُسجت حولها بعض القصص. في الواقع لقبّها الناس بالساحرة الفاتنة.

لكنه وبينما هو جالس مع هذه المرأة السوداء الشعر التي طلعت من البحر كي تعذبه بالاحلام والآمال والتي من الممكن أن تختفي في أية لحظة، لم يشأ أن يفكّر بالفتنة والسحر. فتابع قائلاً: «الحقيقة أقلّ شاعرية بالطبع. كانت امرأة خائنة. فسرعان ما ملّت من غايلز المسكين لتميل إلى أحد المشرفين على القصر، ثم اختفى الاثنان معاً».

ـ وماذا حلّ بزوجها؟

ـ زوجها غايلز لم يفق من الصدمة ومن خسارتها فالتجأ إلى الشراب ومات بعد خمس سنوات تاركاً الميراث لولده.

ـ يا لها من قصة محزنة ويا لهذا الرجل المسكين!

ـ نعم؛ لا بد أنه تطلّع إلى الحياة بفرح وظنّ أنه سيتمتع بحياته ولم يدرِ ما الذي أصابه!

قالت وهي تستذوق الطعام بشهية: «هل تعلم أن الطعام شهي للغاية وهذه الكعكة من الحليب والبيض...».

ـ إنها البودنغ، التي تشتهر بها يوركشير.

ـ أنا مستعدة للزواج كي أتناولها كلّ يوم.

وبدلاً من أن يأكل الطعم اكتفى برفع حاجبيه بتهكم؛ فضحكت وتركا المسألة عند هذا الحدّ.

تناولا الطعام بتأنٍ قرب النار فهدهما النعاس بعد ما تعرّضا له من البرد والمطر. وأحسّت ميريل بشعور من الاطمئنان والرضا والاكتفاء يغمرها. وراحت تسائل نفسها قائلة: متى أحسست بالاكتفاء في حياتي المادية

الصاخبة؟.

ثم تناهى إلى مسمعها صوت يقول: «استيقظي!».

واستفاقت فجأة تسأل: «ماذا؟».

فتحت عينيها لترى وجه جارڤيس قريباً جداً منها ويداه على كتفيها وهو يهزّها ويقول بصوت رقيق: «استيقظي، فالسيدة هيلمز تريد أن تقفل أبواب الفندق».

ـ هل كنت نائمة؟

ـ منذ وقت طويل.

ـ لم أشخر أثناء النوم، أليس كذلك؟

ابتسم وأجاب: «أقسم لك أنك لم تشخري لكنك تتكلمين وأنت نائمة».

سألته بخوف: «ماذا قلت؟».

ـ لم أستطع أن اسمع كل شيء جيداً لكنك قلتِ شيئاً عن القدر.

لم تشأ أن تتحرّك من مكانها. كلّ ما أرادته هو البقاء في ذلك المكان على هذا النحو وهي تحاول أن تفهم النظرة الكامنة في عينيه.

إلا أنها فهمت معنى النظرة، فلقد لمحتها كثيراً في عيون الرجال لكنها كانت تضحك عليهم وتغيظهم. كانت تعانقهم إن هي شاءت ذلك أو تبعدهم عنها لأنّها كانت تعلم أنهم سيعودون في اليوم التالي.

إلا أن هذا الرجل مختلف. فقوة إرادته تضاهي قوة إرادتها وكبرياؤه أقوى من كبريائها. حبست أنفاسها وهي تدرك أنه يقاوم الإغراء وتمنّت لو يخسر المعركة. ولكن السيدة هيلمز دخلت في هذه اللحظات محدثة ضجة قوية وقالت: «يقول مايك إنّ السيارة جاهزة».

ابتعدا عن بعضهما البعض بسرعة، وكلّ منهما مذهول، يحاول جاهداً أن يتخذ موضعاً لقدميه في هذا العالم الجديد الغريب. ودون أن تعي ما تقول تمتمت ميريل: «سأحضر حقائبي».

www.elromancia.com

نزلت بعد دقائق معدودة فرأت أن جارڤيس قد غادر المكان والسيدة هيلمز تنتظرها عند الباب. همّت بدفع الحساب لكن السيدة هيلمز أخبرتها أن جارڤيس دفع الفاتورة بكاملها فاغتاظت منه.

عندما وصلت إلى المرآب كان مايك يقول: «لقد أصلحت السيارة ولكن آن لها أن تستريح إلى الأبد. احترس وانتبه جيداً وأنت تقودها».

كان قد انقضى منتصف الليل قبل أن يستقلاّ السيارة عائدين إلى البيت. وظهر في السماء قمر ساطع كسا المنطقة بنوره الفضي. لقد بدأت ميريل الاعتياد على تغيّر الأجواء بشكل مفاجىء..

وحبست أنفاسها لجمال المكان ورهبته ثم قالت: «أردت أن أدفع لصاحبة الفندق...».

ـ لم يكن من حقك القيام بهذا، ومن توجّب عليه دفع الحساب هو أنا.

ـ ربّما بالنسبة إلى الوجبة ولكن لم يتوجب عليك دفع إيجار الغرفة...

ـ لو لم تساعديني في دفع السيارة لما كنتِ بحاجة إلى الغرفة.

ـ لكنك لم تكن ترغب في اصطحابي في هذه الرحلة وأعتقد أنه وجب علي دفع الحساب.

ـ لا أوافق.

ـ لكنك...

كادت تقول: لا تستطيع أن تدفع.

حذرّها قائلاً: «لا تقوليها».

ـ لم أكن ماضية في ذلك.

ـ بلى، كنت ستتفوهين بتلك الكلمات وهذا ما كان سيدفعني إلى رميك على الطريق. هذا هو السبب الذي يجعلني راغباً بشدة في إخراجك من رأسي.

لقد طارت لحظة التفاهم القصيرة. وعاد جارڤيس إلى موقفه الحذر منها مجدّداً لأنه مرّ بلحظة ضعف. حاولت أن تتكلم معه ثانية قائلة:

«اسمع...».

ـ لقد انتهى الموضوع وحسم.

ـ مستحيل!

ـ انتهى الموضوع.

ـ لماذا؟ لأن اللورد لارن يأمر بذلك؟ يا لجرأتك ووقاحتك!

كان ضغطه القوي على الفرامل إشارة خطرة، فقالت ميريل لنفسها: سوف ينفّذ وعيده وسيرميني هذا الحقير على الطريق.

وبلهجة لا تخلو من التهديد والوعيد قال: «أهناك شيء آخر تودّين قوله؟».

ـ شيء واحد فقط أريد قوله (بعد الذي فعلته بالفرامل قد يتعطل المحرّك وعندها سوف تلقى الجزاء الذي تستحق).

لم يجازف بالتعليق على قولها هذا بل أدار السيارة دون حصول أي إشكال. وقالت ميريل بينها وبين نفسها مجدداً: لم تتعطل السيارة، مما يثبت أن الشيطان يهتم بأمور خاصّته.

***

www.elromancia.com

٦ ـ هل تخسر حربها؟

أخيراً ظهرت معالم الشاطىء بوضوح وشكّل الممرّ المرتفع شريطاً من الفضة. وتساءلت ميريل عمّا إذا كانت تلك هي المرّة الأخيرة التي تنظر فيها إلى ذلك الشاطىء.

شاهدت سيارة غريبة متوقفة عند مدخل القصر، وحين دخلا أسرعت حنّة للقائهما وهي تقول لجارڤيس: «هناك رجل يدعى «بلاكهام» ينتظرك منذ ساعات ويقول إنه لن ينصرف قبل أن يراك».

ثم سُمع صوت من خلفها يقول: «هذا صحيح. لقد وعدتُ موكّلي ألا أدعك تفلت من يدي».

كان الرجل هزيلاً، شاحب اللون، في العقد الخامس من العمر. مظهره كان كافياً لجعل الدم يتجمّد في عروق ميريل ولاحظت من لهجة جارڤيس أنه يشعر بالنفور من هذا الرجل أيضاً.

خاطبه جارڤيس قائلاً: «أنا لا أتهرّب منك يا سيد بلاكهام».

فأجابه «بلاكهام» وهو يلوّح ببعض الأوراق: «حقاً؟ إنما هذه الأرقام تشير إلى عكس ذلك. ادفعْ كلّ ما عليك، فقد نفد صبر موكّلي».

تسلّلت ميريل في العتمة بعيداً آملة ألا يدري جارڤيس بوجودها.. سمعته يقول: «سبق أن اتفقنا أنا وموكلك على كل شيء».

قاطعه بلاكهام بحدّة قائلاً: «بدّل رأيه ويريد المال الآن».

أجابه جارڤيس حانقاً: «تعلم أنه لا يمكنني دفع مثل هذا المبلغ من غير إعطائي المهلة الكافية. هل تظنّ أني لا أعرف القصد من هذا كلّه؟ فمن شأن

هذه الاجراءات القانونية أن تؤدي إلى سقوطي في الهاوية وإلى إفلاسي».

ـ لا دخل لي بالموضوع...

ـ ما هذا الكلام؟ بالطبع تعرف أنّ موكّلك يودّ أن يقضي عليّ.

في هذا الوقت، كانت ميريل واقفة عند الباب وأحسّت بحنّة تدنو منها وتهمس في أذنها قائلة: «اتصل السيد ستين وقال إن لاري يعرف كلّ شيء وهو بصدد محاربتك».

ـ متى حصل هذا؟

ـ منذ بضع ساعات.

ارتعبت ميريل وقالت: «في هذه الحال، قد يكون في طريقه إلينا».

حان وقت اتخاذ القرار ولا مجال للهو بعد الآن. أما بالنسبة لجارڤيس، فلم يكن الأمر لهواً، فعالمه ينهار ويتقوّض من حوله وما من أحد يقدر على مساعدته سواها. وقد يفوت الأوان بعد عشر دقائق.

ساورها شعور غريب لم تحسّ بمثله من قبل؛ كانت كمن يراقب مشهداً على المسرح من وراء الكواليس، ووجدت نفسها تضحك هشّة لتظهر مدى تفاهة الوضع القائم. وسألت: «ما هو المبلغ المطلوب دفعه؟».

ثم ألقت نظرة على الأوراق قبل أن تضيف: «هذا المبلغ البسيط فقط؟».

أجاب بلاكهام: «إذا كنتِ تعتبرين مبلغ عشرين ألفاً بسيطاً...».

أجابته، وهي تحاول قدر الإمكان أن تبدو متغطرسة: «إنه مبلغ تافه بالنسبة إلي يا عزيزي».

وقال صوت في داخلها: (لكلامك هذا وقع شديد على نفسه وسوف يتأكّد من ظنونه وصحة مخاوفه).

استهلّ بلاكهام الكلام بقوله: «سمعتُ عنك...».

قاطعته قائلة: «إذاً تعرف أني أصرف هذا المبلغ على شراء فستان لي».

ثم فتحت دفتر الشيكات ودوّنت عليه شيئاً بعجلة وأضافت وهي

تناوله إيّاه: «انصرف الآن، وكفّ عن إزعاجي».

قام بمحاولة أخيرة قائلاً: «لا أقبل شيكاً، قد يردّه المصرف ويرفضه».

نظرت إليه باستغراب ودهشة فتراجع ثم تمتم قائلاً: «حسناً أعطيني الشيك».

وانتزع الشيك من يدها ومشى بخطوات واسعة ثم التفت وتأملهما بتهكم وخاطبهما قائلاً: «في الأيام القليلة المقبلة سوف تريان الكثيرين من أمثالي. آمل أن تكون الشائعات عن زواجكما حقيقة».

شعرت ميريل بجارڤيس يطبق أصابعه بإحكام ويبذل جهداً للسيطرة على أعصابه وما لبث أن صرخ في وجه بلاكهام: «اخرج حالاً».

عندما أصبحا بمفردهما قال جارڤيس وكأن الكلمات تنتزع من فمه انتزاعاً: «شكراً».

ـ لا بأس، فأنا مدينة لك بهذا بعد أن أوقعتك في طامّة كبرى.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ هناك على ما يبدو الكثيرون ممن ينتظرون بفارغ الصبر القضاء عليك من أجل ديون بسيطة. ولكن لماذا تحرّكوا لمطالبتك الآن بالذات؟

أومأ برأسه وقال: «لأنك هنا».

ـ هذا صحيح، فهم يخشون أن أنقذك ولهذا نشطوا بهذه السرعة. فلو هُزمت الليلة، لانتهى أمرك والسبب قدومي إلى هنا. ألا تدرك حقيقة الأمر يا جارڤيس؟ عليّ أن أتزوجك شئتُ هذا أم أبيت.

أجابها بحدّة وبسرعة: «حسناً، لا تتحدثي عن الموضوع بهذا الشكل المأساوي».

ـ أستطيع أن أعطيك كلّ ما تريد وأن أضع ميزانية ضخمة لإصلاح وترميم هذا المكان؛ شرط أن تعطيني ما أريد.

دوّت ضحكته الساخرة وهو يقول: «بندكت ستين».

ـ بل لقاء حريتي واستقلاليتي.

كانت تنتظر الرّد وضربات قلبها تتسارع. وأخيراً نطق: «يبدو أنه لا

خيار آخر لديّ».

بدا الغضب واضحاً في عينيه، فهو يكره أن يُحشر ويحرج، ولم تعجبه الطريقة التي أنقذته بها. . علّقت ميريل بمرارة وسخرية: «لقد طلبوا يدي للزواج مراراً من قبل ولكن بطريقة لا تخلو من العاطفة والحرارة».

ـ ما قدّمته لي هو عرض عمل لا غير وأنا أقبل به. بعد العرس، تحصلين على ميراثك وتحظى ممتلكات آل لارن بدوطتك. وبعد ذلك تعودين إلى حياتك الحقيقية في نيويورك.

ـ سأفعل ذلك بعد فترة من الزمن وليس في الحال. فلو أسرعت في الرحيل صباح اليوم التالي للعرس، لضر ذلك بمنزلتك ولحط من قدرك، أليس كذلك؟

ـ لا أفهم ما تعنين.

ـ آه، بل أنت تفهمني بالطبع. فهل يُعقل أن تختفي عروس اللورد لارن العظيم ذي المقام الرفيع بعد حفل زفافهما بيوم واحد؟ وما رأيك بسبب وجيه آخر؟ إذا غادرتُ بهذه السرعة أكون قد قدّمت للاري الذريعة المناسبة لإبطال الزواج. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن أبقى وأتحقق من الأوراق النهائية كلها.

ـ ثم تغادرين. أليس كذلك؟

ـ إذا كنتَ راغباً في ذلك. قد تبدّل رأيك.

ـ أبعدي هذا الأمر عن تفكيرك، فلن يحصل ذلك أبداً. هناك واجب وعليّ القيام به فقط لا غير.

أبدت تذمرها بالقول: «يا لك من رجل رومنسي!».

خامره شعور بغيض رهيب لأنه يعاملها بفظاظة. فهذه الليلة وجد نفسه على شفا الكارثة وقد انتشلته منها؛ ولم تنقذه فحسب بل جميع ممتلكاته وكل العاملين والمقيمين فيها أيضاً. ولأجل هذا فهي تستحق معاملة أفضل من التي بدرت عنه. حاول أن يرسم ابتسامة على شفتيه واستهل كلامه بالقول: «أريد أن أقول. . .».

فقاطعته: «هل لديك هاتف؟ لستُ متأكدة أن هاتفي الخلوي يعمل عبر المحيط الأطلسي».

ـ هناك هاتف في غرفتك على مقعد النافذة خلف الستائر.

ـ شكراً. عمتَ مساءً.

ـ عمت مساء.

اعتقد جارڤيس أنه سوف ينام مباشرة بعد يوم طويل كهذا، لكنه أحسّ باضطراب شديد؛ وعندما وجد نفسه غير قادر على النوم، نفض عنه الغطاء. هناك شخص واحد فقط يرغب في التحدث إليه في تلك اللحظة وهذا الشخص هو ميريل، لأنها الانسانة الوحيدة التي تستطيع أن تفهم مشاعره وهي ما تزال في غرفة السيدة لارن التي يفصل بينها وبين غرفته رواق صغير. كل شيء في الممر كان بارداً، من أرضيته الحجرية إلى جدرانه، فارتجف جارڤيس من البرد. وعندما لمح النور من تحت باب غرفتها سرّ كثيراً، ولكن ما إن رفع يده ليدق الباب حتى توقف لأنه سمعها تخاطب أحدهم قائلة: «لقد سوّي الأمر وسنحصل على الاموال حالما أنتهي من القيام بجميع الترتيبات اللازمة. متى تستطيع المجيء؟».

لحظة سكوت، ثم سمعها جارڤيس تضحك برقة لم يعهدها منها من قبل وسمعها تقول: «كم أتلهف لرؤيتك. آه يا بندكت! لدينا الكثير من المشاريع لتحقيقها».

وعاد جارڤيس إلى غرفته بهدوء.

صباح اليوم التالي، استيقظت ميريل باكراً جداً لأن بندكت أطلعها على الوقت الذي غادر فيه لاري نيويورك وعلمت أنه لن يصل قبل العصر، مما أتاح لها الوقت الكافي لتنفيذ ما عزمت عليه. فطلبت من شيث أحد كبار الخدم، أن يقلّها بحراً وقالت له: «لا تهتم لأمر عودتي. سأرجع بالسيارة عندما تنحسر المياه».

وكما قالت فعلت ولكنها عادت بسيارة جذبت أنظار جميع من في القصر إليها.. شاهدها جارڤيس لحظة وصولها ولم يستطع أن يبعد نظره عن

سيارة الرانج التي تبدو باهظة الثمن بشكل يفوق تصوّره.

قفزت من السيارة ورأته ينتظرها عند باب القصر، فقالت له: «هذه السيارة عملية أكثر من سيارتي الأخيرة. فهي متينة للغاية وتثبت جيداً على الطريق. اعتقد أنه باستطاعتك قيادتها حتى عندما يكون المدّ عالياً».

وافقها جارڤيس الرأي بتأن ووقار: «أحسنتِ الاختيار».

ـ من فضلك، دقق لي في هذه الأوراق.

قالت هذا وناولته بعض الأوراق ودخلت إلى القصر. تبعها وهو مقطّب الجبين ومشى وراءها ببطء إلى أن التقيا في المكتبة. فخاطبها وكأنه غير متأكد مما يقرأ: «هذه الأوراق... باسمي أنا؟!».

ـ نعم، هذا صحيح.

وقفت قبالته، ولكن الدهشة عقدت لسانه، فقالت: «كلّ ما في الأمر انك وضعتني في خانة السّوقيين الذين يمتلكون الأموال أكثر مما يمتلكون الذوق».

ثم وضعت مفاتيح السيارة في يده وأطبقت أصابعه عليها وطوّقت يده بيديها للحظة قبل أن تقول: «أردت أن أبرهن لك أنك على حق».

احمر وجهه خجلاً إذ سمعها تتلفظ بنفسها بكلماته المتحاملة عليها. لكنه حين نظر في عينيها شعر أنها تخاف أن يرفضها. فخلف كلماتها الساخرة تكمن حساسية مفرطة لم يكن يتخيلها. فكلّمها بصوت مرتعش: «لا تتفوّهي بهذه السخافات. هذه السيارة رائعة بالفعل وهي مناسبة لهذا المكان من العالم. عندما أقودها أنا في الأراضي التابعة لي.. أقصد عندما نحن..».

ـ كلمة نحن هي الأفضل. اعتبرها هدية العرس.

وضع يده على يدها قائلاً: «في هذه الحال، شكراً لك. ما كان بالإمكان اختيار أفضل من هذه الهدية».

دهش لما رأى وجنتيها تحمّران خجلاً، فكأن هذه المرأة التي تثق بنفسها وتحصل على ما تريد تهتّم برأيه. ارتبك ولم تفارقه منذ الليلة السابقة المشاعر المتناقضة ما بين الذعر والراحة بالإضافة إلى شعور صادق بالامتنان رغم أنه

لم يستطع التعبير عن مشاعره تلك بالكلمات. فطيلة حياته وهو يعاني من مشكلة إيجاد الكلمات المناسبة. أدرك المقدرة التي تتمتع بها ميريل في مجال التمثيل من خلال الطريقة التي أوقفت بلاكهام عند حدّه، لكن ما قامت به ملأ نفسه بالرهبة والفزع. فهو مدين لها، وإذا أرادت أن تأخذ وتستولي على كل شيء، فلن يستطيع أن يرفض، ثم تذكّر أنه يستطيع أن يردّ لها كل دينه بمنحها الحرية بأن تحبّ رجلاً آخر، ألا وهو بندكت الذي اتصلت به في أول فرصة سانحة والذي كلمته برقة وعذوبة عن المشاريع التي يودّان القيام بها. فقال في نفسه: «حسناً؛ هذا الأفضل لكلينا».

سألها بكلّ تهذيب: «ما رأيك بنزهة في السيارة لنحتفل بالمناسبة؟».

ـ أودّ ذلك ولكن ليس الآن. يجب أن أكون هنا عندما يحضر لاري فهو الوصيّ علي.

ـ آه، نعم. هو الرجل الذي تأملين تعطيل نفوذه إذا تزوجتك. هل هو منزعج كما كنت تأملين؟

ـ لا أعلم. لم أتحدث إليه، لكنه في طريقه إلى هنا. كنت أودّ أن أكسب المزيد من الوقت غير أن لاري قصد بندكت ثائراً وتمكّن من انتزاع كلّ المعلومات منه.

ـ إذاً كان بندكت على علم بمجيئك إلى هنا؟

ضحكت وقالت: «أوصلني إلى المطار بسيارته. وفكرة الاعلان في الصحيفة كانت إحدى بنات أفكاره إلى حدّ ما».

لم تلاحظ الانقباض البادي على وجهه لانشغالها بأفكارها الخاصة. تنهدّت وقالت: «تباً للاري؛ ما الذي يجعله يأتي إلى هذا المكان؟ ولكن لا بأس، أستطيع أن أحتمي بك».

ـ ماذا؟

حدّقت إليه وفي عينيها براءة الأطفال وقالت: «أنت زوج المستقبل وعليك أن تحميني!».

أجابها وهو يشدّد على كلامه: «أودّ أن أرى الرجل الذي لم يكن

باستطاعتكِ التغلب عليه بمفردك».

ـ وهل هذا يشملك أيضاً؟

ـ إذا كنتِ تعتقدين أنك تهزمينني بأموالك...

قاطعته قائلة: «أتكلم عن المال كما تعلم جيداً... يا معالي اللورد».

قال برويّة: «اتفقنا على ما فيه مصلحتنا نحن الاثنين ولكن لم ولن تتفوقي علي أو تهزميني».

ضحكت متسائلة: «أتراهن؟».

ـ لا أدري إن كنت أستطيع المراهنة.

ـ لن يمرّ على زواجنا وقت طويل حتى يمكنك الاجابة عن هذا السؤال.

وفي هذه اللحظة تمنى لو أنّ أنفاسها لم تداعب وجهه بتلك الطريقة المثيرة، وأردف قائلاً: «توقفي عن التلاعب بي يا آنسة وينترز».

ـ إذا كنّا مقدمين على الزواج أليس من الأفضل أن تناديني ميريل؟

لم يكد جارڤيس يسمع صوتها، لأنه كان يتأمل وجهها الذي بدا أكثر جاذبية وسحراً عمّا كان عليه في السابق.. في هذا الوقت أُفلتت خصلة من شعرها وتدلّت على جبينها فكاد يرفع يده ويبعدها عن وجهها، لكنه منع نفسه مذعوراً؛ فكيف استطاع أن ينسى ضرورة اتخاذ الحذر منها؟

أجابها ملّبياً طلبها: «ميريل!».

لكنها استاءت من الطريقة التي خاطبها بها وقالت: «لهجتك تتخذ طابعاً رسمياً أكثر من السابق».

ـ أفضّل التعامل دائماً بطريقة رسمية مع شركائي في العمل.

لم يكن ينوي الابتسام لها ولكن ابتسامتها أجبرته على ذلك. ففي لحظة فارقتها معالم الحنكة كلها وبدت فتاة صغيرة تغيظه بشقاوتها وعبثها. وفي النهاية لم يعد يلجم رغبته في الابتسام ووعد نفسه بالمقاومة في مرة أخرى. فجأة سمعا صوت الباب ينفتح، فحوّلا نظرهما صوبه في الحال وإذا بسارة واقفة هناك والتوتر الشديد باد على وجهها. فانسحبت ميريل وهي تقول

لجارڤيس بصوت عذب: «اراك لاحقاً».

تقدّمت سارة ونظرت إلى وجه جارڤيس تتفحّصه وتقول: «قل لي إن الخبر ليس صحيحاً.. لقد أخبرني فيردي ولم أصدّق أنك قد تدنّي نفسك وتقدم على خطوة كهذه».

حاول جارڤيس ألا يدعها تلاحظ مدى الإرباك الذي سبّبه له كلامها، فسارة صديقة قديمة تهتمّ لأمره. فسألها: «هل انتشر الخبر في كلّ مكان.. ما عساي أن أفعل؟ أأعلن إفلاسي وأخرب بيوت كلّ من حولي؟ لقد سنحت لي الفرصة لكي أنقذ الجميع».

ـ . . . ولكن بهكذا ثمن؟!

ـ إنه التزام شكلي فقط. سنحظى أنا وميريل بما نريد، وعندما تسوّى وتتوضح الأمور يتمّ الطلاق بطريقة سرّية وكل منّا يذهب في سبيله.

ـ هذا ما قالته لك. أليس كذلك؟

ـ ماذا تقولين يا عزيزتي؟ ميريل لا ترغب بي كرجل.

حتى وهو يقول هذا تذكّر كلام ميريل وهي تسائله عابثة: «أتراهن؟».

ولكن سرعان ما اختفت الذكرى من رأسه. ولحسن الحظ لم تنتبه سارة لتعابير وجهه لفرط اهتياجها وقلقها، فقالت: «لا، لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً؛ لكني فهمتها جيداً من اللحظة التي تقابلنا فيها.. إن هذه المرأة تنوي استلام زمام الأمور وتسييرها بأموالها».

أجابها وقد نسي أنه كان يفكّر بالطريقة ذاتها: «ليس من العدل أن تقولي هذا عنها».

ـ آه يا جارڤيس! إنّها فتاة مدللة معتادة أن تفعل ما تريد وتستسلم لأي نزوة حمقاء. وهي إلى ذلك لا تهاب المخاطر.

تأثّر بكلامها وقال دهشاً: «معكِ حق. هي لا تهاب المخاطر أبداً. كادت تغرق تلك الليلة ومن ثمّ جاءت إلى هنا وحيدة وبدون ثياب؛ وواجهتني بجسارة وكأنها في حماية جيش كبير».

ـ ماذا تعني بقولك بدون ثياب؟

ـ كانت ثيابها مبللة بالمطر فاستعارت ثياباً غيرها. هيّا يا سارة؛ حاولي أن تسعدي من أجلي بما أنّ متاعبي سوف تزول.

ـ متاعبك في بدايتها، لكنك لا تدرك ذلك. تعتقد أنها سترحل بكلّ بساطة؟ حسناً، قد ترحل ولكن بعد أن تحوّلك إلى خاتم في إصبعها.

ـ لن يحدث هذا أبداً وهي تعرف ذلك.

ـ وتعتقد أنها قبلت! ألا تدرك أنها لن تكتفي إلا بعد أن تشتريك وتبيعك مادياً وعاطفياً.

اكفهّر وجهه وأمسك بذراعيها وهزّها بلطف قائلاً: «إذا كنت تعتقدين أن الأمر قد يصل إلى هذا الحد فأنت تهينيني. ثقي بي، فأنا أعرف كيف أتدبّر أموري».

ابتسمت وكأنّ المسألة قد حسمت وقالت: «طبعاً، ليرتعد الغزاة!».

ـ هذه هي سارة التي تعجبني. لطالما كنتِ صديقتي العزيزة يا سارة. أعلم أنه يمكنني الاعتماد عليك.

ـ الآن ودائماً.

عانقها بقوة ولكن كأخ ولم ينتبه ويشعر أنها ساخطة وغاضبة منه. ولم يلاحظ أيضاً ميريل وهي تمرّ بالباب وتشيح بنظرها بعيداً عنهما كيلا تراهما يتعانقان. ولكن لم يفت ذلك على سارة.

وصل لاري بعد ذلك بساعتين وبدا متوعّداً وهائجاً. أوّل ما تفوّه به كان: «أعتقد أن الأمر لم يكن مستغرباً وأنه كان علي أن أتوقع حدوثه».

فأجابته ميريل بهدوء: «وأنا أعتقد أيضاً أنه كان عليك أن تتوقع ذلك فأنت تعرفني جيداً».

ـ أعلم أنك لن تتغيري الآن. قلتِ إنك ستعثرين على صائد ثروات وها قد وجدته.

أجابته محذّرة: «لاري. . .».

في هذه الأثناء نزل جارڤيس على الدرج وحيّى لاري بتهذيب: «مساء الخير. لم نتقابل من قبل. أدعى جارڤيس لارن».

ـ هذا أنت إذاً! يجب أن تخجل من نفسك فما من رجل محترم يكتب مثل تلك الرسالة . . .

قاطعته ميريل وقد نفد صبرها: «لم يكتب جارڤيس الرسالة بل الذي كتبها صديقه فيردي من باب الدعابة والمزاح. ولم يعلم جارڤيس أي شيء عنها وحاول أن يطردني. . ».

أخذ لاري نفساً عميقاً وهو لا يصدق ما قالته ميريل. أما هي فوجدت الموقف محرجاً وصعب عليها النظر إلى جارفيس لكنّ ارتياحها كان كبيراً حين رأت ابتسامة عريضة تلوح على وجهه. ولدى دخولهم إلى المكتبة دمدم جارڤيس قائلاً: «متى أطلب يدك منه؟».

ـ حذار أن تفعل ذلك، فقد أقتلك.

ـ لا تتأسفي؛ فقد أصبحت قليل الإحساس والاّ لما سمحت له بأن يخاطبني بهذا الشكل؟

قبل لاري بعد الحاح من جارڤيس وميريل أن يجلس في المكتبة وهناك قال: «ألا يهمك استغلال امرأة عاجزة؟».

ـ أنا لا أستغل النساء العاجزات، فالمرأة التي نتحدث عنها هي ميريل.

ـ وتعتقد أن ميريل امرأة هادئة، مدركة، ذكية وتستطيع أن تهتم بنفسها؟

ـ لا! بل أعتقد أنها رعناء، طائشة، مزاجية ومعتوهة ويجب أن يُحجر عليها. لكنها ستفعل ما يدور في رأسها ولن يمكننا ردعها لا أنا ولا أنت.

ـ تستطيع أنت أن تردعها.

ـ فات الأوان، فأن الآن مدين لها بالمال.

ـ ماذا تقول؟

ـ حسناً، سأتزوجها من أجل أموالها؛ وأرى أن أستحوذ على المال قبل أن ترجع إلى رشدها. فلنرى ـ عشرون ألفاً الليلة الماضية ـ واليوم سيارة ثمينة وثمن السيارة الذي دفعته.

ثم وجه الكلام للاري: «هل أعجبتك هدية العرس المتوقفة في

الخارج؟».

أجابه لاري بلهجة حادّة: «لم تستغرق وقتاً طويلاً لتستغل الفتاة».

هزّ جارڤيس كتفيه وقال: «هيا قلّ ما تشاء؛ كلّ أملي هو أن أحصل على دوطة بلقبي».

تلا صمت طويل هذا الكلام. وفي هذه الأثناء، رفع لاري رأسه ليلقي نظرة فاحصة على جارڤيس، ثم لاحت في عينيه نظرة ملؤها الاحترام وقال له: «أنا واثق أن ميريل ستخبرك عمّا يدور في رأسها».

قال جارڤيس مباشرة: «لا أبحث في القضايا المالية مع النساء».

تأففت ميريل، لكنها نظرت إلى جارڤيس ورأته يغمزها بعينه، فَسُرت. لم تكن تتوقع هذه المبادرة منه مما جعلها تودّ معرفة المزيد. لكنها شعرت أن عليها أن تدير دفّة الحديث، فقالت: «لاري، إذا كان هذا موقفك، فلا أعتقد أنك بدأت العمل على الأوراق. عليّ أن أوقع على الكثير منها وإلاّ قد يتخلّ خطيبي عني».

أخفى جارڤيس ابتسامة، ووجد نفسه يستمتع بوقته كثيراً. أما لاري فحملق بميريل غاضباً وقال: «لم يتّهمني أحد قط بعدم الكفاءة في عملي. لديّ بعض الأوراق التمهيدية».

وأخرجها من حقيبته، ثم تابع يقول: «في الواقع لم أعتقد أنك ستصغين إلي؛ وإذا كنتِ مصمّمة على أن تقدمي على هذا العمل الأخرق فلنقم به على خير وجه. هذه أوراق أولية بالطبع، سآتي بغيرها وقت العرس الفعلي. أعتقد أنني مدعوّ، أليس كذلك؟».

ـ طبعاً. فأنت ستزفّني إلى عريسي.

بدت على وجه لاري معالم متناقضة من السرور والذهول وهو يتساءل: «أزفّك إلى عريسك! هذا يحصل في الزواج الكنسي، إنما يلزمك فقط زواج مدني هادىء».

ـ مستحيل. أنسباء اللورد لارن يتوقعون له زواجاً لائقاً في كنيسة القصر حيث تزوج أجداده.

تعثّر الكلام على لسان لاري قبل أن يقول: «يبدو أنك فقدت عقلك. أرى أنك ستطالبين أيضاً بكلّ ما يتعلق بالمناسبة: فستان العرس الأبيض واشبينات العروس وحفلة استقبال كبيرة..».

ـ بكلّ تأكيد.

ثم أضافت وهي تسأل جارڤيس: «لن تتزوج بطريقة أخرى، أليس كذلك؟».

ـ لا، لا أستطيع.

ناشده لاري قائلاً: «أرجوك لا توافقني الرأي إشفاقاً عليّ! لأنك سوف تزيدها عناداً ورعونة، فلن أتفاجأ إذا ما طلبت من ذلك الفتى الوسيم أن يخيط لها فستان العرس».

فسأله جارڤيس مستفهماً: «الفتى الوسيم؟».

ـ بندكت ستين؛ فهي تعمل كلّ هذا من أجله.

شعاع من الأمل لاح في الأفق وأضاف متسائلاً: «ألم تخبرك...؟».

ـ بلى أخبرته ورضخ للأمر. ليس من مفاجآت لجارڤيس، وهو يعلم الأسباب التي تجعلني أقدم على الزواج.

ـ إذاً رأسه بحاجة إلى فحص ورأسك بحاجة إلى فحص أيضاً؛ كما أن رأسي يحتاج إلى فحص أيضاً.. لن أضيف شيئاً آخر. أطلعاني على موعد الزفاف وسأحضر. ليكن الله في عوني. سأزفك إلى عريسك.

أقلّه جارڤيس في القارب إلى حيث كانت سيارة الأجرة في الانتظار. أثناء الرحلة، جلس لاري معظم الوقت في المركب صامتاً.. أخيراً خاطبه جارڤيس، قائلاً: «انس ما قلته لك. لم تكن تلك فكرتي».

أجابه لاري وهو يتقد من الغيظ: «أعلم هذا. فأنا أستطيع أن أتبيّن الأعمال التي تتميّز ميريل بالقيام بها. لو كان بندكت يستحق كل هذا لما عارضتها.. لا بدّ أنها مغرمة به بجنون لتقدم على هذا العمل من أجله».

سأله جارڤيس وهو يركّز نظره على القارب: «هل هي تقول إنها مغرمة به؟».

ـ بالتأكيد لا. فهي تذكّرني دائماً بأنه متزوج؛ لكن زواجه ما هو إلاّ غطاء فقط لأنه بحكم المنتهي؛ وهو مولع بميريل.

سأله جارڤيس دون مبالاة: «وهل هو حقاً رجل وسيم؟».

ـ مثل نجوم السينما؛ فالمعجبات به كثيرات جداً وعددهن لا يحصى.

ـ لو كانت ميريل مثل سائر النساء لما دار بيننا هذا الحديث.

نظر إليه لاري بإمعان وقال: «آمل ألا تكون قد وقعت في غرامها».

ـ طبعاً لا، فأنا صياد ثروات جشع وسأتزوجها من أجل مالها. لقد سوّينا هذا الأمر.

احمرّ وجه لاري وقال له مذعناً للأمر: «من الممكن أن تكون أسوأ من هذا!».

وعندما وصلا إلى اليابسة، رافقه جارڤيس حتى وصلا إلى حيث سيارة الاجرة، وهناك أضاف لاري قائلاً: «ليس لديك أدنى فكرة عمّا أقحمت نفسك فيه وعمّا ينتظرك؛ كلّ ما أقوله لك هو إني أرثي لحالك».

***

٧ـ لا تُقاوَم . .

ضربٌ من الإلهام أو الوحي هبط على ميريل ودعاها إلى القول بأنها أوشكت أن تسبّب لجارڤيس كارثة كبرى ولهذا يتعين عليها القيام بواجبها تجاهه. والحقيقة أنها التزمت بذلك وهذا ما بعث في نفس جارڤيس الارتياح في الأيام التي تلت اتخاذهما القرار بالزواج.

أمضيا يوماً كاملاً تقريباً وهما يقومان بجولة استكشافية في أرجاء القصر؛ وهالها أن ترى مكاناً بهذه الضخامة.

واصطحبها في الزورق، وكأيّ شيء آخر في المكان كان الزورق في حالة يرثى لها.

حذّرها قائلاً: «ولكن إياكِ أن تبتاعي لي زورقاً آخر؛ فأنا معتاد على الإبحار في هذا الزورق منذ كنتُ فتياً».

ـ لن أبتاع لك زورقاً أو مركباً جديداً شرط أن تعدني بأن تصطحبني ثانية في رحلات كهذه.

ـ لك وعد شرف من أحد أفراد عائلة لارن.

لو كان بإمكانها نعتُ جارڤيس بالفاتن أو السّاحر لنعتته بالساحر الفاتن. . فقد ظهرت البسمة على وجهه وبدا أكثر ابتهاجاً وسعادة عن ذي قبل لتحرّره من همومه المادّية.

صاحت وعيناها شاخصتان إلى السماء قائلة: «مطر! لا أصدّق أنها تمطر ثانية!».

قال وهو يدثّرها بسرعة بمعطف واق من المطر: «سبق أن قلت لكِ إنّ المطر يهطل طيلة الوقت هنا. سوف تسأمينه سريعاً».

نبهها تعليقه إلى أنه لا يثق بها، وهمه الوحيد هو تأمين الحماية المادية لأراضيه ومن ثمّ توديعها. كفّت عن التفكير في الموضوع في الوقت الحاضر؛ ستؤجّل هذا الأمر إلى يوم آخر. وعلى أي حال، رأت أنه من الحماقة أن تعتقد أنها مغرمة به. .

أحبّها الناس سريعاً أينما اتجها، ليس فقط لأنها جلبت معها الخير والمنفعة بل لأنها بذلت كل ما بوسعها لتكسب ودّهم وأفلحت في ذلك.

وبما أن هذه البلاد تتميز عادة بجو متقلب للغاية، توقف المطر فجأة مما أفسح المجال لظهور شمس خافتة، لكنها تحدّت الأمطار وبانت في السماء ببهائها. وفي تل غراندز اشترى جارڤيس بعض الكولا له ولميريل وجلسا على طاولة خشبية في الخارج. وأخذ يراقبها وهي تميل إلى الخلف لتستمتع بنور الشمس على وجهها ورأى كم تبدو في منتهى الراحة وكأنها في بيتها وراعه أن تكون في غاية الانسجام والتكيف. لكنه نبّه نفسه قائلاً في أعماقه إنها مجرّد لعبة خيالية؛ فالأمر بالنسبة إليها أشبه بالأفلام السينمائية حيث بإمكان المرء أن ينتقل إلى حياة أخرى.

رآها تحدق في الطريق. فسألها: «إلام تنظرين؟».

ـ إلى ذلك الدكّان الصغير. . . هناك سترة في الواجهة. . .

ثم تمشّت في الطريق لتتطلع إلى واجهة محل أصواف. . وعلى الواجهة رأت قطعة مذهلة مشغولة من خمسة أنواع مختلفة من الصوف وأربعة أنواع من الأقمشة وستة الوان. تأملتها ميريل بدهشة واستغراب، وقالت مأخوذة: «هذه حقاً. . . حقاً. .».

قال باقتضاب متوقعاً منها الانتقاد: «انسي الامر ولنغادر المكان».

ـ لا أريد أن أنسى الأمر، فلا ترى مثل هذه القطعة كل يوم.

ـ أعلم أنها قد تبدو غريبة ومستهجنة مقارنة بالثياب المعروضة في نيويورك، لكننا هنا لا نهتم كثيراً بأحدث الموديلات. فالحياة صعبة وقاسية. لقد أحسنتِ صنعاً اليوم، فلمَ تفسدين الأمر بضحكة رخيصة؟

وكزته برقّة وأجابت: «يا لك من جاهل! هذه القطعة صنعت على يدي

شخص موهوب وبارع وخلاّق. إنها مثيرة وغاية في الفرادة».

ـ حباً بالله، كفّي عن ذلك يا ميريل!

ـ أعلم أن الحياة قاسية وصعبة.

ـ لكننا بالتأكيد لا نصنع أشياء مثيرة وفريدة من نوعها.

ـ ربما لا تستطيع أنت أن تفعل ذلك، ولكن المبدع الذي صنعها يمتلك قدرات كبيرة.

دخلت المحل حيث رأت سيدة مرحة متقدمة في السّن تجلس خلف الآلة الحاسبة. وبناء على طلب ميريل أحضرت السّترة وساعدتها في ارتدائها.

عندما تم توضيب السترة، بهت جارڤيس لرؤية ميريل تدوّن شيئاً على ظاهر يدها.

وهما عائدان في السيارة، سألها جارڤيس: «هل تفعلين ذلك عادة؟».

ـ طبعاً، وهكذا أتأكد من عدم إضاعة ما أدوّنه. إذا كانت بقية الثياب بهذه الجودة فباستطاعة هؤلاء النساء كسب مبالغ مالية تفوق تلك التي يجنينها الآن.

ـ أعلم أنك تريدين لهنّ الخير ولكن ليس من العدل أن تمنّيهن بآمال كاذبة.

ـ ذات مرة، قلت لي ذلك، لكنها لم تكن آمالاً كاذبة، أليس كذلك؟ ربما لا تعرف دائماً ما هو الأفضل بالنسبة إلى الآخرين...

ـ أعتقد أنني أعرف تماماً ما يحتاج إليه قومي.

ـ قومك؟ أتقصد أنك تمتلكهم وأنه لا يسمح لأحد غيرك بإبداء رأيه حتّى هم؟

ـ لا أعتقد أن بإمكان أحد أن يمنعك من ابداء رأيك...

قالت بلهجة حادة: «طالما لن يطلب منك أحد الاستماع».

ـ سأستمع ولكن لست مجبراً على الاقتناع.

علا صوتها وقالت: «لكننا نتحدث عن الأزياء».

ـ بل نحن نتحدث عن ممتلكاتي التي لا تعرفين شيئاً عنها أبداً. ولكن

دعينا من الشجار الآن. أنا ممتن لك حقاً ولكن هناك خط لا أستطيع تجاوزه.

ـ تقصد أن هناك خطاً لن تسمح لي بتجاوزه، أليس كذلك؟

ـ ربما؛ فأفضل اتفاقيات العمل تسير حسب شروط محدّدة وواضحة.

جوابها كان مرفقاً بتنهيدة وهي تقول: «أجل، هكذا تتم اتفاقيات العمل».

وصلا إلى المنزل ووجدا مصّوراً صحفياً ينتظرا وصولهما بلهفة. فزواج رجل انكليزي ينتمي إلى الطبقة الارستقراطية بفتاة مجتمع أميركية غنية قصة لا تفوّت.. ولم يكن جارڤيس ليمانع أبداً في التملص، لكنه صمّم على القيام بما هو لائق ومناسب، فابتسم وتجاوب بكلّ مرح وطيبة خاطر.

بعد عدة أسئلة طلب منهما المصوّر التقاط صورة أخيرة قائلاً: «صورة أخرى فقط؛ سألتقطها وأنتما تستندان إلى السيارة.. هلاّ أحطت خصرها بيدك؟ جيّد... قرّبها أكثر إليك...».

اتّبع جارڤيس تعليمات المصوّر وهو يحاول أن يلهي افكاره كيلا يشعر بخصرها النحيل تحت أصابعه.. كانت تضجّ حيويّة ورقّة، لكنه لم يكن ليفكّر بكلّ هذا ولن يسمح لنفسه بأن يتنشق رائحة الزهور التي تفوح منها وتهمس له بأشياء ناعمة لا يمكن أن يعبّر عنها بالكلمات... وتناهى إلى مسمعه صوت المصوّر يقول: «أنظرا إلى عينيّ بعضكما».

لا بدّ من التفاتة لتنساب يدها وتستقر على ظهره. قال بينه وبين نفسه إنها معتادة على الابتسام أمام المصوّرين بكلّ براعة وبشكل طبيعي، لكنه لمح على وجهها نور الشمس والضحك والسعادة وبريقاً ماكراً ملؤه الدعابة والعبث. وبطريقة ما انعكست أشعة الشمس على عينيه. فأحنى رأسه لا شعورياً وعانقها.

أصيبت ميريل بهزّة، بل بصدمة، عندما بدأ بمعانقتها، فعناق هذا الرجل شبيه بنفسه: حازم، عنيد، قاهر، وفي منتهى الرجولة. دعاها إلى

الاستزادة وحثها على الانكفاء في نفس الوقت، وشعرت بنفسها تتقبل الدعوة بانجراف وتتناسى التحذير. لطالما رغبت في هذا العناق... ولن تنسحب الآن. كانت لحظة الفوز بالنسبة إليها وقد هُزمت كلّياً وغلبت وقُهرت ومنيت بهزيمة نكراء ولكن هذا أمر أسرّ قلبها...

همست اسمه: «جارڤيس».

لم تعرف تقريباً أنها نطقت باسمه، ولكن بطريقة ما تحرّكت تجذبه وكأنها تطلب المزيد.. فاستجاب لها، بكلّ عزم وتصميم. أحاطت بها ذراعاه بكلّ قوة حتى أنه لم يبق لها خيار آخر سوى الذوبان بين يديه فيما تلاشى العالم من حولهما.

لبثا لبعض الوقت بلا حراك فيما كان المصوّر يقفز مرحاً ويلتقط الصورة تلو الأخرى إلى أن هتف أخيراً: «حسناً، إنها لقطات رائعة».

شعرت بأنّ العالم من حولها يعود إلى وضعه المعتاد.. ورفع جارڤيس رأسه ليرى وجهها ويعرف ما إذا كانت مأخوذة مثله. تطلّعت عيناها إلى عينيه، وكانتا في غاية التأثر، ولم تخفيا شيئاً وأسمعتاه الكلام الذي يريد سماعه. لو كانا بمفردهما... فجأة تذكّر كلمات سارة وهي تقول له: «ألا تدرك أنّها تريد إركاع كلّ الرجال؟».

قاطع الصحفي أفكاره إذ رفع صوته مودّعاً إياهما وكأن شيئاً لم يكن. بيد أن كل شيء كان وكلّ ما يجب أن لا يحصل حصل وفات الأوان لردّه ووضع حدّ له. قال لها باقتضاب: «سأراك في الداخل».

ومشى بخطوات واسعة بعيداً عنها.

صباح اليوم التالي سألته: «هل أنت بحاجة إلى السيارة؟ هل يمكنني أخذها؟».

أجابها بتهذيب ولياقة: «ما من حاجة إلى السؤال. فأنت اشتريتها».

لفتت نظره بالقول: «ولكن إذا استخدمتها أنا دون مراجعتك، فستظن أني في غاية الوقاحة. لا طائل من الكلام معك؛ فأنا الخاسرة معك دوماً، أليس كذلك؟».

مرّر يده بشعره قائلاً بصدق: «عفواً. لا أعرف ماذا جرى لي، فأنا أسيء التصرف».

في الواقع لم يفقد سلوكه الحسن بل صوابه منذ اللحظة التي عانقها فيها. قد ينكر الحقيقة لنفسه، لكن يصعب عليه ذلك كما حصل عندما ذكّرته بأنّ بإمكانه أن يؤذيها ويجرحها ووجد الأمر أكثر صعوبة عندما قالت له برقة: «حاول ألا تستاء وتمتعض مني كثيراً يا جارڤيس».

أسرع قائلاً: «هراء. أنا لا أمتعض منك بتاتاً».

أراد الاعتذار وإصلاح الوضع، فسألها: «أتريدين أن آتي معك؟».

ـ لا، شكراً. سأذهب إلى المطار لاستقبال بندكت.

كان قد باشر بمدّ يده نحوها، لكنه سحبها ثانية.

بعد أن انصرفت استدعى جارڤيس أندرو كارفر لعقد اجتماع ومناقشة الامور المستجدّة.

إن كان لاري قد لفت الأنظار، فإنّ بندكت ستين أثار ضجّة كبرى. وصل إلى القصر في ساعة متأخرة من بعد الظهر وعندما قفز من السيارة الكبيرة التقطت الشمس شعره الأشقر السميك مما جعله يبدو كمعبود يوناني شاب. حين أمسكت ميريل ذراعه باهتمام بالغ وتوّجها إلى القصر وهما يضحكان بدوا كزوجين رائعين.

تأنّى جارڤيس في النزول لملاقاته بعد أن راقب لحظة وصوله من النافذة العلوية. عندما وصل إلى المكتبة، وجد الغرفة مغطاة بالأقمشة البيضاء الرائعة، أقمشة من الحرير والساتان والأقمشة المقصبة المطرّزة. وكانت حنّة تحدّق بإعجاب في ميريل التي وقفت وقد لُفت جسمها بقماش يتلألأ بالجواهر اللامعة الصغيرة، وحتى جارڤيس، لاحظ آثار الإسراف المفرط في هذا الزّي.

قال بندكت وهو يفتح علبة سوداء ليكشف عن تاج ماسي رائع: «ستبدين مذهلة إذا ثبّتت الطرحة بالتاج».

تابع كلامه شارحاً الأمر: «عندما تسيرين في الممشى سوف تتلألأ

الماسات وثوبك سوف يمسّ الأرض بينما تنساب الطرحة خلفك...».

أحدث جارڤيس صوتاً كالسّعال فالتفتت أنظار الجميع صوبه. قال بلطف: «عذراً، لقد تأخرت».

ألقت ميريل ملابسها وحليّها المبهرجة جانباً وقالت: «جارفيس أقدّم لك صديقي بندكت الذي يعدّ فستان عرسي».

كان كلام جارڤيس لائقاً، لكنه كان يتفحّص الشاب باستياء، إذ لم يعجبه ما رأى. فكما قال لاري فإن بندكت يشبه نجوم السينما في وسامته.

بماذا يتحلّى بندكت ستين من صفات عدا وسامته ليجعل امرأة متزّنة...؟

لكن هذه المرأة لم تكن متزّنة؛ فهي ميريل التي سافرت في الطائرة قاطعة مسافات طويلة لتعترض سبيل رجل غريب من دون سابق إنذار والتي كادت تغرق نفسها وواجهت الموقف بالضحك والتي تدوّن على يدها ورأسها محشو بطواحين الهواء والخطط الوهمية المجنونة. ولِمَ شخص مثلها يحتاج إلى من يحميها من بندكت ستين؟ بل بالأحرى من سيحميها منه هو.

حرص على أن يكون ذلك اللقاء الأول مقتضباً، ودوداً... ثم أبلغهما أنه سيراهما وقت العشاء وخرج مسرعاً ليتصل بفيردي ويطلب منه ومن سارة الحضور تلك الليلة. فقد شعر بأنه لن يكون بمقدوره أن يتحمّل العبء وحده.

الجميع ارتدوا الثياب الرسمية لتناول طعام العشاء في حجرة الطعام الكبيرة. حيث تجلّت فخامة ممتلكات لارن إذ علّقت على الجدران أسلحة بشكل دائري والدّروع في كلّ ركن.

كانت سعادة بندكت لا توصف وقال متعجباً: «يا للروعة والفخامة! هذا ما أريد تجسيده في الثوب.. رأيت الدّرج الرئيسي الكبير في القاعة؛ يجب أن أراك وأنت تتخايلين عليه غداً يا ميريل».

لمح جارڤيس مظاهر الفرح الشديد ترتسم على وجه فيردي، فالتوت شفتاه.. وبدت ميريل أيضاً تتسلى وتضحك برفقة بندكت.. كانت

ترتدي ثوباً رائعاً تتماوج ألوانه ما بين الزرقة والخضرة؛ لكنه كان في الواقع من أرهف وأرقّ ابتكارات بندكت المصنوعة من الحرير الشفّاف. كلّ ما كان يستطيع جارڤيس قوله هو أن ذلك الثوب زاد جمال لون عينيها بشكل جعله يتأملها جيداً. واضطرت سارة أن تعيد على مسمعه ما تودّ قوله مرة أخرى قبل أن يلتفت اليها ويلاحظها.

بدأت السهرة لطيفة وسارّة، ولكن مع الوقت اشتدت كآبته. فقد ثبت في النهاية أنّ بندكت خير رفيق في السّهرات؛ فهو قادر على الاستماع إلى الآخرين باهتمام والتحدّث بإلمام.

مع ميريل تصرف كممثل مسرحيّ يغازل حبيبته على المسرح. قبّل يدها وامتدح جمالها وناداها بمعبودته الفاتنة. لكنه في الواقع لم يقم بشيء يحمل خطيبها على الاعتراض دون أن يبدو أحمق وسخيفاً.

ثم تذكّر أنّ ستين هو خطيبها الحقيقي.. وسمع فيردي يهمس في أذنه: «أنت شارد الذهن، أليس كذلك؟».

ـ عفواً؟ لم أسمع ما قلتَ؟

ـ عادة أنت لا تشرد كثيراً. آمل أن يكون سيث هو من سيقلّنا إلى المنزل هذه الليلة، لأنني بصراحة أخشى أن يقود بي السيارة رجل شارد الذهن.

دمدم جارڤيس قائلاً: «أوى سيث إلى الفراش وأنتما مضطران للمخاطرة والذهاب برفقتي».

عقّب فيردي والابتسامة العريضة تملأ وجهه: «وتترك عروسك تستضيف رجلاً آخر بمفردها؟».

أجابه جارڤيس بصوت خفيض وفظ: «اذهب سباحة إذا شئت».

بعد نصف ساعة، كان جارڤيس قد أوصل ضيفيه إلى الشاطىء وعاد على متن مركبه. لم يجد أثراً لميريل وبندكت. صعد الدرج بحثاً عنهما وسرعان ما سمع أصواتاً منبعثة من خلف باب غرفة ميريل؛ وما هي إلا لحظة حتى انفتح الباب وخرج بندكت مغلقاً الباب خلفه.

قال لجارڤيس: «أحسّت بصداع وتطلب منك أن تعذرها لأنها لم تستطع

انتظارك».

ـ بكلّ تأكيد. هلاّ تناولتَ معي شيئاً قبل الخلود إلى النوم يا سيد ستين؟

انتقلا إلى غرفة جارڤيس ثم جلسا معاً كرفيقين مع أن واحداً منهما فقط كان مرتاحاً وعلى سجيّته..

قال بندكت متسائلاً براحة ورضا: «من كان ليتخيل أن تنتهي الأمور على هذا النّحو؟».

ـ أيّ شخص يعرف ميريل، قادر أن يتخيل ذلك. لا بدّ أنك تعرفها جيّداً. لِمَ سمحت لها بأن تجازف بخوض مخاطرة كهذه؟

ـ إنها تهوى المخاطر والمجازفة، بل هي تستمتع في هذا الأمر.

رغب جارڤيس في أن يضع يده حول عنق بندكت.

ـ ألا يخطر ببالك أنه من واجبك الاعتناء بها؟.

ـ أتعني أن أقول لها ما يمكنها فعله وما لا يمكنها فعله؟ لا يروق لها هذا النوع من الناس وبطريقة ما تتصرف على هواها في نهاية المطاف.

ما إن همّ جارڤيس بالاعتراض حتى أدرك أن هذا ما يحصل بالضبط.

قال جارڤيس: «بما أنك باقٍ هنا لبعض الوقت، لِمَ لا تدعو زوجتك للانضمام إليك يا سيد ستين؟».

خبا الألق الذي كان يتوهج في عيني بندكت: «هذا لطف منك، ولكن ذلك مستحيل».

ـ لِمَ لا؟ يسرّني مجيئها كثيراً. اتصل بها.

نظر إليه بندكت بكره شديد وهو يجيب دون مواربة: «إن السيدة ستين منهمكة حالياً في إجراء الترتيبات اللازمة لطلاقنا».

في اليوم التالي وصل إلى القصر طرد بريدي من نيويورك وحسبَ أنه من لاري. وبما أنه كان يعلم أنها في غرفتها صعد إلى الطابق العلوي ليسلّمها إيّاه ولأن باب غرفتها مفتوح بعض الشيء تجرأ ونظر إلى الداخل من دون أن يدقّ الباب. وفي اللحظة التالية تمنّى لو أنه لم ينظر.

كانت ميريل واقفة قرب النافذة ولا يستر جسدها سوى ملابسها

الداخلية.

لم يفق من الصدمة للوهلة الأولى، فأخذ يراقب كل صغيرة وكبيرة. ولكنه تنبّه فجأة إلى بندكت ستين وهو واقف وذراعاه حول خصرها يسوّي ويضبط بكل اهتمام شريط القياس.

تطلعا إليه من دون أن تساورهما أي دهشة أو ارتباك، فابتسمت ميريل وقالت: «إن بندكت يأخذ المقاييس النهائية لثوبي».

قال جارڤيس بفتور: «ربما يمكننا التحدّث عندما يتسنى لكِ الوقت».

خاطبت ميريل بندكت قائلة: «من الأفضل أن تذهب الآن يا عزيزي».

وخرج بندكت بسرعة.

قال جارڤيس: «أحسبُ أنه لا يفترض بي أن أمانع».

ـ ما هو الشيء الذي من المفترض أن تمانع فيه؟

ـ وتسألين بكلّ رباطة جأش ووقاحة؟ أمن عادتك أن تدعي الرجال يدخلون إلى غرفتك وأنت عارية؟

ـ لست عارية.

ـ حسناً.. تقريباً!

ـ بندكت يخيط لي ثيابي ويراني مرتدية ثياباً أقلّ، ولا نرى في الأمر عيباً.

لكنه كان يرى العكس.

ـ بندكت لا ينظر إليّ كامرأة، علاقتنا أخوية وأنا بمثابة أخت له. من المؤكد أنك لمست ذلك بنفسك، أليس كذلك؟

لم يفعل ذلك، فبالنسبة إليه لا يُعقل أن ينظر أيّ رجل إلى ميريل ويلمح جمالها دون أن يصاب بالجنون من فرط توقه لامتلاكها. تجلّت له الحقيقة، حقيقة وضعه المرير والداعي للسخرية. ففي أعين الناس هو رجل محظوظ ذو امتياز لتمتّعه بجنيّ هذا الحصاد الغني. لكنه الوحيد الذي يعلم أنه يتوجّب عليه الوقوف موقف المتفرّج فيما يتمتع رجل آخر بكامل الحرية في الدخول إلى غرفتها ولمسها متى شاء. وتقول إنها علاقة أخوية؟

قال بلهجة فاترة خالية من أي انفعال: «ما تقومين به بعد طلاقنا ليس من شأني...».

ـ أليس الوقت باكراً جداً للتطلّع إلى طلاقنا؟

ـ إن كنت بهذا القدر من الحماقة والتهور لبذل كل هذا الجهد من أجله، فهذا من شأنك...

ـ بحق ربك...

سكتت تتملكها مشاعر من السخط والنقمة والتعجب ورفعت يديها مستسلمة وهمّت بالانصراف، إلا أن جارڤيس أمسك ذراعها بقوة وشدّها إليه وهو يقول: «افهميني جيداً يا ميريل، لن أجعل من نفسي أضحوكة. لن أقبل أبداً بأن يشار إليّ بالبنان ويضحك الناس عليّ ويقال إن زوجتي متيّمة برجل آخر إلى حد أنها لا تستطيع أن تحسن التصرف.. عليك التصرف كليدي طالما أنك تحملين هذا اللقب».

احتدّ غضبها وقالت: «آه حقاً! وماذا ستفعل الليدي لارن؟ أتمنع خياطها من الاقتراب منها؟».

ـ ستمنع أي رجل من الاقتراب منها وهي على هذه الحال ما عداي.

همست قائلة: «ما عداك. ما عداك...

تلاشى غضبها، ولأنه كان يمسك بها ملتصقة بجسده استطاعت أن تشعر برعشة تسري فيه. التقت العيون، ولمحت في عينيه النظرة التي لطالما رغبت في رؤيتها. قالت لها إنه يريدها رغماً عن أنفه ومنطقه وتحفظه... كلّ ما بداخله كان يقاومها، ولكنه خسر المعركة، مثلها تماماً. غدت نظرتها دافئة بفعل نظراته المسمّرة عليها... وأحسّت باحمرار وجهها وتساءلت عمّا إذا رأى واستوعب الأمر. وكانت أصابعه تحرق ذراعها وشعرت به يعانقها ثانية.

عانقها كما كانت تتمنى. ثم قالت ببطء: «يجدر.. يجدر بك أن تتركني».

ـ أجل.

كان يتكلم كرجل لم يعرف ما يقوله وتحرّكت أصابعه ولكن لتحكم القبض على ذراعها.. همست قائلة: «أهذا ما يقوم به اللورد لارن عندما يزور الليدي لارن؟».

ـ أعتقد أنه لا يزورها أبداً.

ـ لن يزورها إلا بعد العرس؟

ـ ولا حتى بعد العرس. إنه أعقل من أن يفعل شيئاً كهذا.

همست ثانية: «آه يا جارڤيس ألا تأخذ إجازة من عقلانيتك؟».

قال بمرارة: «أبداً، فاتني القطار».

ـ لا أصدق.

ـ لا أستطيع أن أتغيرّ الآن، لا يمكنك أن تغيريني أو أن تحمليني على التغيير.

أرخى ذراعها ورفع يده لتمسّ برفق وجنتها وشفتيها.

تمتم قائلاً: «بيننا اتفاقية عمل وأعتقد أنه من الاجدى أن تبقى الأمور على هذا النحو، لنكن واعين وعاقلين».

لم تصدّقه، وتوقعت منه أن يعانقها. كانت تتوق لأن يفعل، لكنه لم يعانقها، وبدلاً من ذلك انسحب بسرعة وخرج من الغرفة بعجلة تاركاً إياها تتخبّط في وحدتها ويأسها.

* * *

٨ ـ خفايا قلبين

امتلأت غرف الضيوف في القصر في الليلة التي سبقت حفل الزفاف. شغل بعضها اصدقاء ميريل الذين أتوا من أميركا قبل الموعد بعدة أيام، وقد كان عددهم أقلّ بكثير ممّا كان يتوقعه جارڤيس. فالسكان المحليّون من مستأجرين وجيران نزلوا في معظم غرف الضيوف لأن ميريل أصرّت على استضافتهم في تلك الليلة لكي تجنّبهم مشاكل المدّ.

كانت بادرة جيدة من قبل ميريل تعبّر عن مراعاتها لشعور الآخرين، وقد بدأ جارڤيس يتوقع منها أخذ مبادرات انسانية كهذه، وهذا مازاد من شعوره الغريب بأنه يشاهد شخصين لا شخصاً واحداً: المرأة العطوف التي مدّت يد المساعدة إلى سكان المنطقة ملتمسة رضاهم، والغاوية التي تطالب برأسه قبل أن تختفي وعلى شفتيها ابتسامة الظفر. سوف يراقبها وهو يتساءل عن المرأة الحقيقية.

خيّم جوّ من المرح على عشاء الليلة الاخيرة وابتهج جميع الحاضرين. وجدت ميريل نفسها جالسة قرب هاري. وهو مؤرخ استاذ جامعي متقاعد يعرف عن عائلة لارن ما لا يعرفه سواه من الأحياء بمن فيهم جارڤيس..

بعد أن تبادلا اطراف الحديث قال لها هاري: «أرى أنك لست عاطفية».

ـ تقصد أن تسألني إذا كنت اعتبر نفسي تجسداً جديداً لمرغريت؟ بالتأكيد، لا. جارڤيس يكره كلّ ما يدور حول ابنة الرجل الثري.

وافقها هاري الرأي: «إنّ حساسيته المفرطة طغت عليه بشكل لا

يستطيع أن يتخلص منها».

ـ إن عائلة لارن تتصف بحب الامتلاك وجارڤيس يتميز بهذه الصفة أكثر من غيره. عندما كان في التاسعة عشرة من العمر، أعجب بابنة أحد المستأجرين وكان اسمها جينا. فتاة جميلة لطيفة ومرحة، ولكن ضحكتها كانت مدوّية للغاية. رضي لوري لارن بالوضع طالما أنّ جارڤيس ساهم يلهو معها.

سألت ميريل بعبث: «أيعتبر هذا حقاً من حقوق الأسياد؟».

ضحك هاري وأجاب: «صحيح أنكِ ترين وجوه عائلة لارن في جميع أنحاء هذه المنطقة، إلا أنها وجوه تتحدّر من الماضي. لا أظن أنّ جارڤيس ساهم في ازدياد عدد اللقطاء من آل لارن. لديه أفكار محددة عمّا هو صائب ولائق، وهذه الأفكار لا تتفق في بعض الأحيان مع ما هو عقلاني. فلقد قرّر الزواج من الفتاة مما سبّب أزمة عائلية، فشرع لوري في العمل بسرعة واختفت الفتاة.

قالت ميريل مذهولة: «يا لها من قصة مرعبة. وهل عرف جارڤيس ما حصل لها؟».

ـ آه، أجل. بعد عدة سنوات التقى بها صدفة في إحدى الحانات، تبين له أنها ملكها. لقد ابتزّها لوري واستخدمت ماله لشراء الحانة. عندما التقيا اعترفت له بأنها كانت ستسأم منه بأي حال لأنه رصين وجاد بالنسبة اليها. ارتاح باله لهذا اللقاء ولكن بعد أن فات الأوان، فقد اعتاد أن يتوقّع من الآخرين تركه وهجرانه وبات من الصعب عليه الإقلاع عن هذه العادة.

انتهت السهرة في وقت مبكر. وبينما كان جارڤيس متوجهاً إلى غرفته، رأى ميريل تنتظره في الرواق قائلة: «أريد أن أقدم لك هدية العرس».

ـ لكنكِ قدّمتِ لي واحدة من قبل.

ـ السيارة من أجل ممتلكاتك وأراضيك ولكن هذه الهدية لك أنت. تعال معي.

قالت ذلك بلهفة شديدة أثرت فيه وحرّكت مشاعره، فتبعها مبتسماً إلى

غرفتها. وهناك قالت له: «لم أجرؤ على تغليفها لكبر حجمها، خشيت أن ألحق بها ضرراً. أغمض عينيك».

أغمض جارفيس عينيه، ثم سمعها تقول: «تستطيع أن تنظر الآن!».

فتح عينيه، ولكن ما رآه جعله يقف مكانه صامتاً دهشاً وسألته بلهفة: «هل أعجبتك؟

- بل أحببتها.

إنها صورة كبيرة لرستي وجاكو.. ولقد رسمهما الفنّان بكلّ أمانة ودقّة.

قالت: «كلّفتُ فيردي برسم هذه الصورة وأعتقد أنه قام بعمل جيد».

أجابها وعيناه مسمّرتان على الصورة: «تمكّن فيردي أن يرسمها بأمانة».

تمنّت لو يبعد نظره عن الصورة وينظر إليها، وخاطبته قائلة: «قلتَ لي إنك ستفقدهما عمّا قريب وفكّرت...».

- هذه الصورة ستذكّرني بهما وهما بأفضل حال.

قال هذا ونظر إلى ميريل مبتسماً بلطف وعذوبة. ثم أضاف: «كانت فكرة جميلة. أشكرك يا ميريل».

- خشيت أن أكون مخطئة في اختياري.

- لا، لم تخطئي.

- لنأخذها إلى غرفتك.

فتحت الباب الذي يؤدي إلى الرواق الضّيق الذي يفصل بين غرفتيهما.

كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها غرفته، فنظرت حولها باهتمام. وعندما حاولت إيجاد علامات تشير إلى شخصية جارڤيس لم تستطع إلى ذلك سبيلاً.

رأت بعض الكتب عن الزراعة والمحاسبة والتاريخ. ثم لفتت انتباهها لوحة لرجل وامرأة في عمر الكهولة، فقال: «إنهما والداي».

أجابته وهي تتفحص الصورة: «تبدو أمك امرأة طيبة للغاية».

- كانت كذلك، على ما أذكر. توفيت عندما كنت في العاشرة من

عمري.

- يا له من أمر محزن! هل كنت إلى جانبها وقت وفاتها.

- لا، كنت في مدرسة داخلية. لم يخبرني أحد بوفاتها إلى أن عدت إلى البيت، أي بعد عدة أسابيع.

لم تستطع ميريل أن تتكلم، فهناك امرأة ثانية اختفت من حياته، فلا عجب أن يتوقع من الناس أن يهجروه. ثم سألته: «هل كان لديك عمة أو خالة تهتم بتربيتك؟».

- لا، لم يكن هناك سوى والدي.

بعد الحديث الذي دار بينها وبين هاري فهمت ميريل أي نوع من الرجال هو ذلك الأب.. كان فظاً وجلفاً وقاسياً.

لقد نشأ جارڤيس في كنف ذلك الرجل القاسي بغياب أي انسان رقيق يؤثر فيه. فليس بالعجيب أن يعوّل على كلبيه إلى هذا الحد.

تردّد جارڤيس قبل أن يخاطبها قائلاً: «لم أقدّم لك هدية العرس بعد. كنت أحاول انتقاء شيء مناسب لك فليس من السهل اختيار هدية لامرأة مثلك. ربما يروق لك هذا. كان لأمي».

تناول علبة صغيرة من الدرج وفتحها. في داخلها خاتم يحتوي على فصّ من الماس. كان صغيراً ولا يتميز بجودة عالية، ولا يساوي شيئاً مقارنة باكليلها الفخم، وأدركت سبب إحجامه عن تقديم هذه الهدية لها من قبل. فقالت له برقة: «أحب أن أمتلك خاتم أمك. هلاّ وضعته في إصبعي؟».

قالت هذا وبسطت يدها اليسرى، فوضع جارڤيس الخاتم في إصبعها وقال بمرارة يشوبها بعض السخرية: «ليس من الصنف الذي اعتدتِ أن تقتنيه».

- نعم، ولكن ليس كما تقصد أنت. لم أعتد يا جارڤيس على أن يقدّم لي الناس شيئاً، فغالباً ما يثبّط همّتهم معرفتهم بأنني قادرة على شراء ما أريد. وهكذا ينتهي بي الأمر بأن لا أنال شيئاً.

رفعت يدها ونظرت إلى الخاتم قائلة: «لم أحظ بمثل هذه الالتفاتة من قبل».

- يسرني أنه أعجبك.

- ويسرني أن الصورة اعجبتك.

- سأعلقها على الحائط قبالة السرير حيث أتمكن من رؤيتها حالما أستيقظ من النوم. من الأفضل الآن أن تأوي إلى الفراش، فغداً سيكون يومنا طويلاً.

في غرفتها، خلعت ميريل ثيابها ببطء وهي تفكر بكلماته... فالصورة هي أول ما يجب أن ينظر إليه عندما يستيقظ. لو كان هذا الزواج طبيعياً، لأحب رؤيتها هي أولاً.

نظرت إلى صورتها في المرآة وخاطبتها بالقول: «ليس باستطاعتي القيام بأي شيء وتغيير الواقع.. لم يسبق لي أن أغرمت برجل لا يرغب فيّ ولا يريدني».

حدّقت صورتها المنعكسة في المرآة فيها بسخرية وقالت لها: «هناك مرة أولى لكلّ شيء».

كانت الكنيسة في الجهة الخلفية لقصر لارن وقبالة البحر.. ومنذ الصباح الباكر من يوم الزفاف سمعت جلجلة الأجراس. ورغم كونها كنيسة كبيرة، اكتظت بالاعداد التي تدفقت عليها في الصباح. كان العريس واشبينه ينتظران، وعينا جارڤيس تراقبان الباب الذي ستدخل منه ميريل.

لم يرَ ميريل في الصباح ولم يسع إلى رؤيتها. وفجأة تحطّم الحلم، إذ وجد نفسه رازحاً تحت وطأة الواقع المقبل عليه.. لقد أتى إلى هذا المكان المقدّس ليأخذ عهداً على نفسه لا يأخذه أي رجل إلاّ من كلّ قلبه، ولكنه ما أتاه إلاّ من أجل المال. مع أنه رجل يتقيّد بالقيم والمبادىء والعهود وحسن السلوك.. إنه الآن يقوم بعمل مقزّز، فجلّ غايته المال. ولكن هل هو مقبل على الزواج بها من أجل المال؟ لا، ليس فقط من أجل المال. فهي رازحة في

مخيّلته وعقله، وعندما ينظر إليها يتبدّل وجهها وتصبح امرأة أخرى. آه! ليت باستطاعته أن يمسك بها في تلك اللحظة الحاسمة عندما يكون صوتها عذباً وعيناها رقيقتين، ويستهدي إلى عمل سحري لإبقائها هكذا إلى الأبد!

هذه هي المرأة الحقيقية، المرأة التي تهدّد قلبه. أو ربما كانت الأخرى هي المرأة الحقيقة: المرأة المحنّكة الحسنة المظهر التي تستطيع أن تمثل عليه وتغويه والتي ابتاعت له أشياء وأشياء ودفعت عنه الأموال والتي لن تكتفي إلى أن تمتلكه عاطفياً كما حذّرته سارة. وعندما تحظى بفريستها، تطير الساحرة عن قمة الحصن وتختفي في الظلمة.

إنه الآن بانتظارها فقد تظهر في أية لحظة وعلى رأسها يشعّ الاكليل المرصّع بالماس؛ أما الفستان الباهظ الثمن فسيخطف الأبصار.

تعالت الغمغمات المختلطة قرب المدخل، فساد شعور من الرهبة والترقّب والاثارة بين المحتشدين الذين غصت بهم الكنيسة. ثم لمع في أرجاء المكان لحن دخول العروس.. ها هي العروس تدخل؛ وما هي الا لحظة حتى رأى جارڤيس رأسها وكتفيها وهي تصعد الدرج ببطء. وقفت لبرهة في المدخل تحت أضواء الكنيسة وكأنها قد طلعت من البحر الراقد خلفها.

بهر عينيه نور الشمس، فراح يفتحهما ويغمضهما بسرعة ليرى من تكون تلك المرأة، لأنها لم تحمل أي شبه للمرأة الغازية التي كان يخشاها. عندما تقدّمت على مهل في ممر الكنيسة وهي تضع يدها على ذراع لاري دقّق جارڤيس نظره فيها وهو لا يجرؤ على أن يشعر بالأمل المستعر في داخله.

ليست ابنة الرجل الثري، بل زهرة برّية يكمن جمالها في بساطتها ورشاقتها. شعرها الأسود منسدل على كتفيها حتى يكاد يلامس خصرها. ولم تتزين بطرحة أو بإكليل ماسي بل بزهور بيضاء.. أما فستان العرس فقد صنع من القماش الناعم حيث تدلى على الأرض بخطوط مستقيمة.

وراء العروس، مشت ستّ فتيات صغيرات يرتدين فساتين من الساتان الأزرق، مزينة بالأزهار أيضاً. جميعهن من سكان المنطقة التابعة لممتلكات

لارن. تعجّب جارڤيس متسائلاً: متى سنح لها الوقت للتعرّف إليهن وأي مقدرة طبيعية تتمتع بها لترتيب كلّ هذه الأشياء ببراعة؟.

أغمض عينيه ثم فتحهما ببطء. ها هو يرى امرأتين في واحدة مرة ثانية؛ المخلوقة الجميلة المظهر تمتزج بامرأة رقيقة ناعمة لديها من الذكاء ما يكفي لجعلها تذهب إلى حفل زفافها من دون أي حلى سوى الإشراقة في عينيها.

حدّقت ميريل بجارڤيس وعرفت أنها أدهشته كما كانت تأمل. وللحظة شعر بالحذر والخوف، فتقدّم نحوها ومدّ يده ممسكاً بيدها بحرارة ولهفة وكأنه يشدّها إليه. إلا أنّه ما لبث أن تنبّه إلى المحيطين به.

كان كاهن الكنيسة، الذي سبق أن دعاها إلى الكرنفال، سيتولى عقد القران. فخاطبهما قائلاً: «أطلب منكما الآن وأوصيكما بأن تجيبا كما ستجيبان في يوم الدينونة عندما تظهر جميع خفايا القلوب».

خفايا القلوب! وكأن ميريل تسمع هذه الكلمات للمرة الأولى. السرّ الذي أزهر في قلبها مؤخراً كان جديداً وبحاجة إلى تفكير وتساؤل وأمل.

سمعت الكاهن يخاطب جارڤيس قائلاً: «جارڤيس أدريان مايكل، هل تريد هذه الفتاة زوجة لك...؟».

ها قد أدركت سبب اعتراض لاري على اقامة هذا الاحتفال. عرف أنه عليهما أن يأخذا على نفسيهما عهداً مقدّساً مدى الحياة وعرف أيضاً أنهما آخر شخصين على وجه الأرض يجدر بهما ذلك.

ـ ميريل اليسيا جين، هل تريدين هذا الرجل...؟

ما إن دوّت هذه الكلمات من حولها حتى أخذت تقول لنفسها: إنها لوعود رهيبة. احترمه! احبه! اكرّمه وأحافظ عليه!

وأضاف الكاهن: «... تتخلّين عن كلّ شخص سواه وتصونين نفسك له ما دمتما على قيد الحياة؟».

قالت لنفسها: (ما دام يسمح هو لي بذلك). وسمعت نفسها تجيب: «نعم».

بعد ذلك أمسك جارڤيس بيدها قائلاً للعالم إنها ستكون زوجته متحدّثاً عن الحب والإكرام. كان صوته خفيضاً وبطيئاً وكأنه يتأمل الكلمات ويتفهم معانيها قبل التلفظ بها حتى كاد يعني ما يقول.

أتى دورها لتقبل به زوجاً في السرّاء والضراء، ولم تجرؤ على النظر إلى وجهه وهي تنطق بهذه الكلمات. قدّمت له يدها اليسرى وفي إصبعها خاتم أمّه. نظر إليه وابتسم قليلاً وهو يدخل الخاتم في إصبعها قائلاً: «بهذا الخاتم أصبح زوجاً لك وبجسدي أصونك».

شعرت ميريل بالرعشة تسري في عروقه وعرفت أنه ما زال هناك بينهما مسألة لم تحسم بعد. فهو مستعد بأن يصونها بجسده ولكن إن بقي فكره متحفظاً وقلبه حائراً. فكم من الوقت لديها؟

وأضاف: «... وأهبك كل ما أملك...».

التقت عيناها عينيه ولمحت فيهما علامات السخرية ولكن مع شيء من الدفء أيضاً. قابل ابتسامتها بابتسامة وكأن فيما بينهما دعابة لا يعرفها أحد سواهما. راودها الأمل: فحيثما يكون المرح يوجد التفاهم؛ وحيثما يوجد التفاهم من الممكن أن يتواجد السلام؛ وحيثما يوجد السلام من الممكن أن يتواجد الحب.

ـ تستطيع أن تقبّل العروس.

قطعت كلمات الكاهن حبل أفكارها، وقبل أن يتسنى لها الوقت لكي تفكر كيف سيتصرّف جارڤيس حيال هذا الطلب، كانت يداه على كتفيها، ثم جذبها إليه وطبع قبلة على شفتيها. غمرها شعور بالسعادة حتى بدرت منها تنهيدة؛ تفاجأ جارڤيس لأنه هو أيضاً شعر بالفرح، فلطالما أقلقته هذه اللحظة وكان يعتبر الأمر بمثابة تمثيل أمام الجمهور. لكن سرعان ما اختفى الجمهور عندما عانقها. كانا وحدهما وأريج الصيف يغمرها، وكأن المرح الذي تتمتع به انتقل إليه هو الذي لم يعرف الفرح والمرح في حياته.

ابتسم لها، فابتسمت له، وظلّت تبتسم وهما يمرّان على طول الممشى وخرجا من الكنيسة إلى الهواء الطلق. كلّ من رأى الابتسامة على ثغرها

فسرّها بطريقته الخاصة. ولكن فهم الابتسامة على حقيقتها واحد أو اثنان. أحدهما كان لاري الذي رأى أشياء كثيرة لم يتكلّم عنها.

لاحظ كلّ من في الحفلة أن جارڤيس لم يستطع ابعاد نظره عن عروسه؛ وعلا التصفيق عندما أحاطها بذراعيه ليؤديا الرقصة الأولى.

قال لها: «أتممتِ كلّ شيء على أفضل ما يرام. كيف تمكنتِ من فعل ذلك؟».

ـ لديّ من الذكاء والفهم أكثر مما تعتقد يا جارڤيس.

ابتسم ولكن ليس بفمه بل بعينيه، فتسارعت ضربات قلبها. هذه ليلة زفافهما ولم يتحدّثا قط عن نهايتها رغم أنها توقعت أن يبتعد عنها قدر المستطاع. ولكنها امرأة بكل ما للكلمة من معنى ولن تدعه يلتزم بما عقد النية عليه.

بعد دقائق معدودة رقصت مع بندكت الذي كان يحاول قدر جهده أن ينتعش ولكن من دون جدوى. فقالت له ميريل: «أشكرك على كلّ شيء. أعرف كم أرهقتك، فبعد أن أنتهيت من وضع اللمسات الاخيرة على ثوب العرس بدّلت رأيي. لقد قمتَ بمعجزة لإتمامك الثوب في الوقت المناسب».

أجابها وهو يبتسم على مضض: «المهم أن تكوني سعيدة».

ـ ما بك يا بندكت؟ هل الأمر سيء إلى هذا الحدّ؟

ـ تذكّرت يوم تزوجت امندا.. كم كنّا سعيدين وكم بدت جميلة في فستان العرس. آه يا ميريل ما عساي أفعل؟

ـ سوف تتحسّن الأمور، فهي تحبك وستعود اليك.

ـ لا أصدق. لم يعد هناك ما أطمح اليه.

ـ لكنك ستدخل العمل من الباب الواسع. سأسافر إلى نيويورك لأساعدك في المباشرة في العمل. سيكون ذلك مثيراً.

حاول أن يتصنّع الفرح وكرّر قائلاً: «نعم. مثيراً».

قالت على سبيل المداعبة: «لا تقل لي إني فعلت كلّ هذا سدى».

جعله كلامها يبتسم ويقول: «ميريل سأشعر بالامتنان طيلة حياتي لما

قمت به من أجلي...».

ـ دعك من هذا الكلام. لقد أسمعتنيّ إياه من قبل، والآن الام ترمي؟

ـ لا تحسبيني مغفلاً؛ فهذا لا ينطلي عليّ. أنا مجرّد غطاء لك. في البدء قمتِ بهذا العمل لتضعي حدّاً للاري. ومؤخراً... ربما غيّرتِ جدول اعمالك.

ـ هل يبدو هذا واضحاً إلى هذا الحدّ؟

ـ فقط لي أنا، فأنا واقع في الحب أيضاً؟

وضعت إصبعها على شفتيه وكأنها تشارك في مؤامرة ما. وبينما كانت سارة ترقص مع جارڤيس الفالس، قالت له: «انظر إليها.. إنها تشاركه نكتة سرية في يوم زفافكما. ألا تدرك أنهما يضحكان عليك؟».

أجاب جارڤيس بجد: «لا أظن ذلك. بدأت أعتقد.. ربما كنت مخطئاً بالنسبة لميريل... ربما...».

ـ هذا ما تريدك أن تعتقده.

ـ اصمتي يا عزيزتي، لا تقولي أشياء سيئة عنها فأنا لا أودّ سماع ذلك.

سكتت سارة فيما الحفلة شارفت على نهايتها.

* * *

٩ ـ عودي إلي

ذهب آخر الضيوف إلى فراشه وخبت أصوات المرح الصاخبة. وأصبح المكان هادئاً للغاية وأعلى صوت تمكنت من سماعه هو خفقات قلبها؛ فهي عروس تنتظر عريسها إلا أنّ الوضع كان مختلفاً.

فما بينهما هو اتفاقية عمل، وجارڤيس سيقاوم الاغراء.. إن لمحات خاطفة ونظرة ولهى في عينيه أوهمتها وجعلتها تخدع نفسها.

وعندما خلعت ثيابها وأطفأت النور، زالت فجأة كلّ معالم النشاط والسعادة والفرح التي خيّمت في العرس، وبدت الغرفة الكبيرة كأنها تسخر منها.

استلقت لمدة ساعة ترهف السمع وقلبها يخفق لسماع أدقّ صوت. سمعت هدير البحر الناعم عند أسفل القصر، كما سمعت صوت صرير الهواء وهو يتغلغل في التشققات الكثيرة في المبنى العتيق. وتعرّفت إلى الأصوات جميعها ولكن الصوت الذي تاقت إلى سماعه هو صوت باب ينفتح في الجهة الأخرى من الرواق الذي يصل بين غرفتيهما.

إنه يرغب فيها.. وهي تحس بذلك من خلال كلّ عرق من عروق جسدها الذي يتوق إليه. ولكنه سيبقى بعيداً لأنه لا يثق بها ولأنه قضى حياته وهو ينأى بنفسه عن أي شخص يحاول الاقتراب منه، لأنه يعلم بأن ذلك سيؤدي به إلى الهجران والألم..

سيأتي إلى غرفتها لأنه لا يستطيع الابتعاد عنها. وسيبقى بعيداً لأنه عنيد ولا يقبل بالهزيمة والاستسلام. وهمست في الظلام: وأنا مثله، ولكني لن

أبالي إذا ضحيت بأوّل بيدق طالما كان الشاب من حظي.

اندفعت بعجلة ونزلت من السرير. ثم فتحت الباب المؤدي إلى الرواق بهدوء. ترددت لبرهة وكادت أعصابها تخونها ثم رفعت رأسها عالياً وخطت أول خطوة في الظلمة. مشت في الرواق الصغير على مهل ثم توقفت ثانية. ماذا لو لم يكن في غرفته وماذا لو كان هناك ورفضها؟

وبينما هي واقفة تتنازعها الأفكار، سمعت صوتاً في الطرف الآخر للرواق؛ فخفق قلبها بالأمل الممزوج بالخوف وعدم القدرة على التصديق. سمعت الباب ينفتح وتلاه سكون. أحسّت بأن أحدهم يقترب منها ويقف على بعد مسافة قصيرة.. أخيراً نفذت إليها حرارة جسده ودفء أنفاسه، شعرت بأصابعه تلمس وجهها وشفتيها. ولم تستطع السيطرة على الرعشة التي سرت في كيانها وخفق قلبها بشدة عندما لمست يده عنقها.. ثم اختفت اليد وشهقت محتجّة، فهذا الحرمان المفاجيء لم يكن ليُحتمل.. وانتظرت لكي يلمسها ثانية، وفي سكون الظلام الصامت لمست الصراع في أعماقه. لم يتحرك ولم يتكلم ولكنها أحسّت بالعذاب ينهشه في لحظة الصمت تلك. الآن جاء دورها لأخذ المبادرة، فمدّت يدها ولمست وجهه. وكانت حركتها هذه كشرارة أطلقت شحنة كهربائية فيه، إذ أمسكت يداه كتفيها وشدّها نحوه بقوة توازي قوة تمنّعه عنها.

توقّف منتظراً إشارة منها، وكأنه مخلوق وقع في قبضة جنية وأخذ يتساءل عن الخطوة الخفية التي يُطلب منه اتخاذها. وجدت ميريل يده، فشدّت عليها وبدأت بالتراجع نحو غرفتها وهي تسحبه خلفها إلى أن أغلقت الباب وراءهما.

لم تكن ليلة مقمرة والنوافذ ذات القضبان الحجرية أعطت نوراً خافتاً، ولكن هذا الأمر كان ملائماً. ففي هذه الليلة ستكون الظلمة خير رفيق لها.

عرفت بالغريزة أنه يودّ التكلم معها، لكنها وضعت أصابعها على شفتيه، فلا مجال للكلام الآن، وليؤجّل ذلك إلى حين أو ربما إلى الأبد.

عندما رفعت أصابعها عن فمه، اقتربت منه تعانقه، برقّة في البدء ثم بقوة، حتى أصبحت رسالتها لا لبس فيها، فبادلها جارڤيس عناقها.

لم يشبه هذا العناق ذاك العناق أمام عدسة الكاميرا عندما كانت دهشته ظاهرة بالنسبة إليها، أو تلك القبلة التي قبّلها إياها في الكنيسة حيث أحسّت بشعور بالدفء واللهفة يغمره رغم قراره بألاّ يستسلم. لقد استسلم الآن، وها هو يعطيها العناق الذي لطالما رغبت فيه، نفس العناق الذي رغبت أن تلقاه.. التعبير عن حبّه لها كان عنيفاً.. كان قلبها يخفق بقوة لم تعهدها من قبل.. لطالما خشي جارڤيس من أن تكون قد أتت بقصد الغزو والإخضاع، وكان محقاً. بيد أنها لم تأت طمعاً بأراضيه ولقبه؛ إذ كان يكفيها الرجل نفسه ولم تكن لتكتفي بما هو أقلّ من ذلك. وكان هو يطلق العنان لحشريته ومشاعره.. لم يستطع التعبير عن حبّه بالكلمات، كانت تعلم ذلك، ولكن هناك علامات أو إشارات استطاعت قراءتها بوضوح، تلمّح عن ذلك الحب. كانت الإشارات جلية في الطريقة التي يعانقها فيها.. بحنان ورقة وحرارة..

عندما استيقظت، لم تكن الشمس قد أشرقت كلّياً بعد ووجدت نفسها وحدها. حزنت لكنها لم تنزعج أو تذعر إذ كانت تتوقع أن يتصرّف على هذا النحو. أضف إلى ذلك أن الذعر هو لضعفاء القلوب، وما من امرأة يضعف قلبها بعد ليلة حب كهذه الليلة. فالعاطفة القوية التي لم يستطع التعبير عنها بالكلمات كانت كامنة في مداعباته الرقيقة. مشاعره هذه كانت صادقة وحقيقية.. وذات يوم، وبمساعدتها، ستستحوذ عليه.. وعندها، ستستيقظ لتجده في سريرها نائماً باطمئنان وذراعاه تعانقانها ووجهه مغمور في عنقها وكأنه وجد ملاذه الأمين. هذا ما عاهدت نفسها عليه في ذلك الفجر الهادىء وهي مستلقية في سريرها.

ما إن غادر آخر المدعوين المكان، حتى حزم بندكت أمتعته استعداداً للرحيل، إلا أن ميريل استبقته قليلاً. واصطحبته إلى تل غراندز وعرفته إلى سادي فذهل بالقطع المحبوكة كما توقعت.

ثم قاما بجولة في المزارع حيث رأى عدداً كبيراً من النساء يتعاطين مهنة الحبك، وسرّ كثيراً بمستواهن الجيد وبراعتهن. جرت مناقشات ترأستها ميريل وأعدّت عقود عمل.

استغرق العمل ثلاثة أيام لإعداد ماكينة العمل. لمّح جارڤيس إلى انهماكها بالعمل، وبعد أن قلّبت الأمر من كلّ جوانبه ارتأت أن من الأفضل عدم إطلاعه على تفاصيل المشروع، إذ لم تنس كيف رفض الفكرة عندما ذكرتها له أول مرة. ورأت من الأفضل أن تنتظر إلى أن تظهر بعض النتائج الملموسة. لذلك اقتصرت على القول إنها أمضت الوقت وهي تعرّف بندكت بالمنطقة. أما جارڤيس فامتنع عن طرح الأسئلة.

في اليوم المقرّر لرحيل بندكت عرّج فيردي إلى القصر لينقلهما عبر المياه. رافقهم جارڤيس إلى المركب وهو يحمل بكلّ سرور رزماً ضخمة من أقمشة فساتين العرس. أما الفستان الباهظ الثمن والذي رفضت ميريل ارتداءه فحمله بندكت بحذر وتوتر ليتم نقله إلى المركب.

ساعدها بندكت وفيردي في الصعود إلى المركب. وعندما تحرّك المركب، لوّحت ميريل بيديها لجارڤيس وهي تقول: «سأعود الليلة».

لوّح بيده وهو غير أكيد ما إذا كان عليه أن يفزع عندما يحين وقت ذهابها إلى نيويورك أو يسرّ..

ذات مرّة دعاها جارڤيس زهرة اصطناعية: فالعالم الذي أتت منه الفصول فيها اصطناعية. أما الآن فهي تعيش حيث التقويم الطبيعي هو الأهم.

ذات يوم، كانا يمتطيان حصانين مؤجرين من أسطبل سارة ويقومان بجولة في المنطقة. توقفا قرب جدول ليشرب منه الحصانان. قالت ميريل: «لو تأخر زواجنا لبضعة أسابيع لفات الأوان بالنسبة لأولئك المزارعين».

أجابها بهدوء: «نعم كان سيفوت الأوان بالفعل».

ذهبت نحو الجدول حيث كان الحصانان يشربان ورشّت بعض الماء على

وجهها. . فأخذ يراقبها ملياً بكلّ أناقتها وهي مرتدية بذلة ركوب الخيل وقد احتجب شعرها الجميل عن ناظريه للمرة الأولى. لكن الليلة السابقة، كان شعرها منسدلاً على كتفيها عندما قبّلها دون أن تراه.

لم تشر بكلمة أو بنظرة إلى حياتهما الخاصة السرّية. في النهار كانا يتقابلان مبتسمين وهما يتجنّبان التطرّق إلى الموضوع ويكتفيان بالكلام المعسول. كأن كلّ منهما ينتظر من الآخر أن يهمس في أذنه: «أنا من كان بين ذراعيك الليلة الماضية».

ولكن حتى ذلك الوقت لم يتنازل أي منهما قيد أنملة. تسرّب بعض الماء إلى داخل عينيها، فتحسّست ثيابها بحثاً عن محرمتها، لكنها لم تجدها. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه جارڤيس وناولها محرمته النظيفة.

جلست على صخرة وقالت: «شكراً. يجب أن نفكر ملياً في المزارعين ومساعدتهم».

سألها بصوت خالٍ من المشاعر: «هل من ضرورة لذلك؟».

ـ نعم. سأودع مبلغاً كبيراً في المصرف كي تتمكن من إعطائهم قروضاً بدون فائدة و. . .

رفعت رأسها ونظرت إليه. كان يحدّق في الماء ومنظره هذا أخرجها عن طورها، فقالت بانزعاج ظاهر: «حسناً؛ أخطأت في اختيار الكلمات. فسّرها بالطريقة التي تعجبك. تعبت من الرقص على الدبابيس والخوف من جرح شعورك؛ لم أعد أعرف كيف أخاطبك بسبب حساسيتك المفرطة».

أحسّ بشعور بالذنب. فجلس إلى جانبها على الصخرة وسألها: «قابلت كرمك بشكل جائر. أليس كذلك؟».

كانت محبطة جداً لكي تكون دبلوماسية فأجابت: «نعم».

ولدهشتها وضع ذراعه على كتفها وعانقها قائلاً: «آسف لأني فظ. . لا أعرف كيف أتقبل المعاملة اللطيفة».

رقّ قلبها فجأة ولسان حالها يقول: «لم تلقَ الكثير من العطف واللطف».

ودّت إخباره عن التغيير الذي حصل لها في هذا المكان. فالآن تستطيع أن تنظر إلى الوراء وترى تفاهة الحياة التي كانت تعيشها، إذ لم يكن هناك من هدف في حياتها ولم يكن هناك أحد بحاجة إليها. أما هنا في هذا المكان، فالكثيرون بحاجة إليها. وقد أحسّت في هذا المكان بسلام لم تعرفه من قبل وتاقت إلى اللحظة التي تستطيع فيها أن تقول ذلك لجارڤيس. إنما تلك اللحظة لم يحن أوانها أو مكانها المناسب بعد.

أجابته: «لننس الأمر إذا كان يجرح مشاعرك».

ـ مستحيل.

قال هذا كما توقعت منه أن يفعل وأضاف: «لا أستطيع أن أحرمهم مما يحتاجون إليه لمجرّد. . . على كلّ حال ستتولين أنت هذه المهمة».

بدأ يذعن لها ولكن جزئياً، ومع هذا ساورها الأمل بأن تتحسّن الأمور في المرة المقبلة.

عادا إلى الجوادين وكان جارڤيس شديد الاضطراب: فشعوره بالامتنان لتفهمها تصارع مع شعور بالخوف من الطريقة التي تجعله يمتثل لها مرّة أخرى، وأصبح مديناً لها أكثر وأكثر. وها هي تبيعه وتشتريه مرتين.

فجأة سألها: «متى تسافرين؟».

ـ متى. . . ماذا؟

ـ متى تسافرين؟ هذه الرحلة الخاطفة التي تنوين القيام بها لمساعدة بندكت في إطلاق عمله. خلت أنك ستقومين بها قبل الآن.

ـ ليس من داع لذهابي الآن. ليس. . .

ـ من الأفضل أن تذهبي، فهناك مؤتمر للمزارعين عليّ حضوره ولن أعود إلا بعد عدة أيام.

ـ أستطيع الذهاب معك.

ـ لن تستمتعي بذلك. وأظن أن ستين بحاجة لمساعدتك.

من الواضح أنه أراد أن ترحل، فأجابت: «سأسافر غداً».

كان بندكت واقفاً في انتظارها وقت هبوط طائرتها. وكانت مدبرة

منزلها قد قامت بالتحضيرات وجهزت كلّ شيء على أتمّ وجه، فغدا المكان باعثاً على الدفء والسرور والراحة. كلّمها بندكت بشأن مكان عمله الجديد وبدا متحمساً: «لقد وجدت موقعاً رائعاً في الجادّة الخامسة».

حاولت ميريل أن تبدو مهتمة للأمر فقالت: «جيد؛ هل من أخبار عن آمندا؟».

ـ إنّ هذه المرأة تتلاعب بي وتتهرّب مني. فهي لا تردّ على مكالماتي الهاتفية وكلّ ما أريده هو أن أطلب منها إعادة النظر بالموضوع.

وكالعادة كلّما تحدّث عن زوجته لامس حزنه الشديد قلب ميريل. دعته ليشرب معها كوب قهوة واتصلت بجارڤيس في أول فرصة سانحة لتخبره بأنها وصلت بالسلامة ولكن جارڤيس كان قد غادر القصر لحضور مؤتمر المزارعين. تركت له رسالة وأقفلت السماعة باستهجان. شيئاً فشيئاً عادت إلى حياتها السابقة غير أنها باتت تتحكم بكل ثروتها الطائلة. حوّلت الأموال التي خصصتها للارن من أجل القروض بدون فائدة.

إنشاء مركز عمل بندكت كان بمثابة تلهية مرحّب بها من قبل ميريل، ولكن ذلك لم يسد الفراغ في حياتها بشكل كامل. بعد انقضاء شهر، أحسّت أنها بحاجة لاهتمامات أخرى. اتصلت بامندا ودعتها لتناول الغداء.. لقد كان بين المرأتين ود ولكنهما لم تلتقيا بشكل مستمر. تحدثتا طويلاً على طاولة الغداء ولكن أمندا لم تغيّر رأيها بالنسبة لبندكت مع أنها لم تكن سعيدة أيضاً. فقالت لها ميريل: «أنتما تفقداني صوابي، فأنتما متحابان».

أجابت أمندا بابتسامة باهتة: «بعض الأحيان لا يكون الحب كافياً. فالشخص الأحبّ إلى قلبك قد لا تستطعين العيش معه».

تمتمت ميريل قائلة: «نعم، آه، نعم».

اتفقنا على اللقاء ثانية وحدّدتا موعداً لذلك. تناولت ميريل بسرعة قلمها الصغير وهمّت بالكتابة على ظاهر يدها. فقالت لها أمندا وهي تبتسم: «لا أصدّق أنك تكتبين بهذه الطريقة العجيبة».

ـ جارڤيس متفاجيء للأمر، مثلك تماماً. في المرة الأولى التي رآني أفعل

فيها ذلك كاد...

توقفت عن الكلام وانتابتها موجة عارمة من الذعر وهي تسأل امندا: «ما تاريخ اليوم؟».

ـ الحادي عشر من أيار. لماذا؟

ـ الكرنفال، سيقام غداً. قطعت عهداً بأن أكون هناك. لقد قدّمت وعداً يا إلهي!

وهما في سيارة الاجرة سألتها آمندا: «إلى أين نحن ذاهبتان؟».

ـ لأحضر جواز سفري ثم اتوجه إلى المطار.

حاولت الاتصال بجارڤيس ولكنه لم يكن هناك، ومن غير المتوقع أن يعود تلك الليلة. سلمت حنة الرسالة ولم تكن متأكدة من أنها ستوصلها إليه قائلة: «عادة لا يتصل بالبيت. لا أعلم لماذا».

قالت ميريل لنفسها بيأس: «في الحقيقة أعلم السبب وهل أستطيع أن ألومه؟»

تلت هذه البداية السيئة أموراً أسوأ. تأخرت الطائرة عن موعد إقلاعها، ثم جاءت المضيفة تخبرهما بوجود مطبات هوائية خلال الرحلة. فقالت في سرها: عظيم! فأعصابي تكون متوترة أصلاً في الطائرة حتى وإن لم تكن هناك مطبات هوائية. وسأصل متأخرة جداً، كما أني تصرفت كما كان يتوقع لذا لن يسامحني أبداً.

* * *

تنهّدت زوجة الكاهن وقالت بأسى: «لن يكون الكرنفال ممتعاً وناجحاً، فالجو غائم والسيدة لارن لن تأتي مع أنها أعطتنا وعداً بذلك».

أراد زوجها التخفيف عنها فقال لها: «قال اللورد لارن إن أموراً عائلية ملحّة أخّرت قدومها لكنه تلطّف ووافق أن يحلّ مكانها».

بدأ الناس يتوافدون إلى الكرنفال منذ نصف ساعة. اللورد لارن كان هناك، مبتسماً ولكن مضطرباً. أما سارة فتلطفت بأن تشرّفهم بحضورها وشبكت ذراعها في ذراع جارڤيس وكأنما تمتلكه..

تجمّع الحشد أمام منصة صغيرة عالية، واتخذ الكاهن موقعه مبتهجاً. وبدا جارڤيس مثله مع أنه لم يكن يشعر بذلك البتة. . كان يشعر وكأن ثقلاً مميتاً حط على صدره حتى أصبح كل ما يقوم به يستلزم جهداً كبيراً. ورغم أن اللحظة قد آنت لم يستطع أن يصدّق أن ميريل قد خذلتهم جميعاً، بهذه الطريقة. وهذا يعني أنها تعتبره شخصاً مغفلاً. .

كم كان يتلهف ليصدقها! كيف أوشك على الاستسلام! والآن فقط اعترف لنفسه كم كان يتوق في داخله للاقتناع بكلامها. قال لنفسه: اشترتك وباعتك عاطفياً ومادياً. ولكن لتتجمد جهنم قبل أن يدع أحد يشكّ في أمره! لذلك وسّع ابتسامته وتظاهر بالتنبه لما يجري حوله وتمنى الموت.

قال الكاهن ببهجة: «طاب مساؤكم أيها السيدات والسادة».

لم يتابع حديثه، فقد سُمع أزيز فوق رؤوس الحاضرين؛ فنظر الجميع عالياً، ولكن الصوت كان آتياً من فوق الغيوم. رفع الكاهن صوته قائلاً: «مرة أخرى فإن كرنفال كنيسة القديس لوقا. . .».

فجأة انشقت السحب كاشفة عن طائرة الهليكوبتر التي صدر الصوت منها.

في اللحظة نفسها، ظهرت الشمس بأشعتها المتدفقة حتى بدت الهليكوبتر وكأنها تهبط مباشرة على شعاع من النور. تفرّق الجمع لتستطيع الطائرة الهبوط. ولكن لم يبتعد أحد منهم أكثر مما ينبغي إذ لم يكن أحدهم مستعداً لتفويت هذا المشهد عليه. وأخيراً حطت الطائرة بعد أن أفسدت المروحة تسريحات شعر الكثيرين منهم من دون أن ينتبهوا للأمر إذ كانوا مأخوذين بالمشهد ويترقبون فتح الباب وظهور الضيف. نادتهم ميريل: «مرحباً جميعاً».

تعالى الهتاف وأخذت صيحات الترحيب تتصاعد وهي تنزل من الطائرة. لوّح القبطان بيديه وأقلع بطائرته وبانت ميريل بكلّ بهائها وروعتها بالبذلة القرمزية والقبعة الضخمة المزينة بقصاصات قرمزية طويلة متموجة كالأعلام الخفاقة. رفعت يديها الاثنتين في الهواء والتفتت لتبتسم إلى الجميع

فرداً فرداً. ثم قفزت إلى المنصة لتصافح الكاهن وقالت بصوت رخيم: «أراهن بأنك اعتقدت أني لن أحضر».

فقال لها جارڤيس: «شرحت لهم بأن هناك ظروفاً قاهرة أخّرتك عن الموعد، لكننا لم نفقد الأمل حتى آخر لحظة».

وجهّت حديثها اليهما وإلى جارڤيس على الأخص وقالت: «كان يجب أن تعلما بأنني لن أخذلكما».

بدأ المحتشدون بالتصفيق وتجمهروا حول المنصة ثم تقدّمت ميريل إلى الأمام وباشرت بالخطاب الذي عملت على إعداده طوال الرحلة.

بدأت ميريل بإخبار الحضور عن رحلتها وكيف خطرت ببالها فكرة استئجار الهليكوبتر وأكملت: «لأنني لن أفوّت علي هذا الكرنفال لأي سبب».

علا التصفيق والترحيب. ثم وثبت عليها ابنتا الكاهن، وهنا سجلت ضربة موفقة ثانية بتذكّرها اسميهما. بعد ذلك قامت بجولة كبيرة على الأمكنة المخصصة لعرض السلع للبيع. وفيما كانت تنتقل بين الأكشاك تذكرت عقبة غير متوقعة؛ فهمست في أذن فيردي: «أين جارڤيس؟ قل له إنها مسألة حياة أو موت».

جارڤيس كان قريباً منها لأنه لم يبعد نظره عنها، فسألها: «ما الأمر؟».

ـ ليس لدي أموال نقدية. أريد أن أشتري شيئاً من كلّ كشك ولم أحوّل الدولارات التي بحوزتي.

همّ أن يسألها سؤالاً آخر فقاطعته: «هيا، أسرع! أنا بحاجة ماسة للمال. مال، مال، مال!».

لحسن الحظ أتى وبحوزته كميات كبيرة من الأموال النقدية للهدف ذاته وتملكه شعور غريب وهو يضع الأموال بين يديها المتلهفتين. غير أن جميع الخواطر اختفت في غمرة الشعور بالسعادة الذي انتابه لدى رؤيتها مجدداً. راحت تنتقل من كشك إلى آخر وهي تهتف وتبدي إعجابها وتشتري الأغراض بسخاء. وأقرّ جارڤيس بروعة أدائها.

خاطبها الكاهن قائلاً: «عادة يكون لدينا كشك لعرض القطع المحبوكة ولكن هذه السنة جميع السيدات منهمكات في مشروع آخر. وكما فهمت أنت وراء هذا العمل».

اعترفت ميريل بذلك وبعد دقائق معدودة أخذها جارڤيس جانباً وقال لها بلهجة الاتهام: «لم تفعلي ذلك؟!».

ـ بل فعلت ذلك.

ـ قلت لك رأيي في الموضوع.

ـ وقلت لك أين يمكنك أن تسجل اعتراضاتك. آه، يا الهي!

قالت هذا وهرعت للتواري عن أنظاره خلف إحدى الخيم، وهناك تردّدت أنّات من الألم الحاد في معدتها. . جارڤيس الذي كان يتبعها عن بعد، رآها جاثية على العشب. فأسرع يضع ذراعه حول كتفيها وسألها: «هل أنتِ بخير؟».

أجابته وهي تلهث: «أنا أفضل الآن. . . إنه ألم المعدة الذي تسببه الرحلة. . .».

خاطبها برفق: «سلامتك. هل آخذك إلى البيت؟».

ـ لا يمكن. هناك مسابقة أجمل لباس تنكري للأطفال.

ساعدها على النهوض قائلاً: «تبدين كمن سيغمى عليه».

ـ رأسي يؤلمني. هل تستطيع أن تحضر لي شيئاً لتخفيف الوجع؟

سرعان ما عاد وهو يحمل الشاي والاسبرين، فلم يجدها. لقد عادت للمشاركة في الكرنفال. . قال جارڤيس لسارة عندما وجدها بالقرب منه: «إنها لها، فهي متوعكة، ولكنك لا تستطيعين معرفة ذلك إذا نظرت اليها».

قالت مجارية إياه بذكاء: «لم أنكر يوماً أنها تتمتع بروح عالية».

ثم لحق جارڤيس بزوجته ليقدّم لها الشاي والاسبرين والاهتمام الزوجي.

أشار فيردي إلى أخته المتفجرة غضباً بالقول: «من المؤسف أن الصورة التي بنيتها عنها تهدمت في اللحظة الأخيرة».

قال هذا وانسحب بسرعة قبل أن يتسنى لها الرّد.

حققت ميريل نجاحاً آخر في مسابقة أجمل لباس تنكري للأطفال. فتحدثت إلى المتبارين الثمانية فرداً فرداً وجعلتهم يطلعونها على الشخصيات التي سيمثلونها.

ودّ جارڤيس الانطلاق بسرعة معها إلى البيت، لكنها ألحّت على شرب الشاي في مقر الكاهن للتحدث إلى كلّ من جاء أملاً في رؤيتها.

أدّت عملاً بارعاً ومتقناً ولكنه استمر لمدة ساعات، وفي هذه الفترة لاحظ جارڤيس عدم إقبالها على الطعام ولاحظ أيضاً شحوبها وذبول وجهها. وأخيراً همس في أذنها: «نحن ذاهبان. لا مجال للنقاش».

نظرت إليه بامتنان.

تمكنا من عبور الممر المرتفع فيما كانت الأمواج المسائية تتصاعد. وحالما وصلا البيت نادى جارڤيس حنة قائلاً: «خذيها إلى سريرها».

خلدت ميريل للنوم ما إن وضعت رأسها على الوسادة؛ لكنها استيقظت بعد ساعات قليلة؛ فإذا بالغرفة شبه مظلمة. لكنها استطاعت أن ترى الرجل الواقف قرب النافذة وهو ينظر إلى الخارج. . تسلّلت من الفراش واتجهت نحوه وأسندت رأسها إلى ظهره، وطوّقته بذراعيها. في البدء لم يتحرك إلا ليلمس يديها الراقدتين على صدره. وخاطبته هامسة: «منذ متى أنت هنا؟».

ـ طوال الليل. كنت آمل أن تستيقظي. ميريل. . .

ـ لا تقل شيئاً الآن. أنا هنا بكامل وعيي.

استدار بصمت ولفّها بذراعيه وعانقها ومن خلال ذاك العناق أحسّت بفرح يغمر ذاته وهو يضمها إليه. بقيا معاً في الظلمة، كالعادة، ولكن في هذه المرة أحسّت أنه فعلاً هناك. . وجارڤيس، الرجل كان معها بشكل لم تعهده من قبل، فقد طغت الآن سعادة القلب على الحاجات الجسدية. . وسمعته مرة يهمس باسمها. وكم تاقت لتقول له إنها تحبه. لكنها أجبرت نفسها على التحلي بالصبر. فتسريع الأمور قد يكون مخاطرة كبرى.

قرّبت رأسه إليها بسرعة قبل أن يتمكن من التراجع. . بعد ذلك، خيّم الصمت وبدا وكأنه غط في النوم كما أملت دوماً. ولكن، بعد دقائق معدودة، شعرت به ينهض من الفراش وينسحب بسرعة من الغرفة. لا بأس، فمع كل هذا، لم تكن لتجرؤ على أن تأمل في عودة أفضل من هذه.

في الصباح ذهبا معاً على متن جواديهما، يتنزهان لأميال عديدة ويستمتعان بهواء أوائل الصيف العليل مكتفيين بالسلام الجديد الذي ظلّلهما. لم يزل هناك الكثير من الكلام الذي لم يقل، ولكن الوقت كان مناسباً فقط ليتوقفا قرب الجدول ويجلسا بتكاسل على الأرض يتبادلان النظرات والابتسامات.

قالت له: «غبتُ فترة قصيرة للغاية، لكن كل شيء يبدو لي مختلفاً هنا».

ـ أعلم ذلك. فقد أخرجنا القطعان من زرائبها إلى الحقول.

ـ وهناك الحصاد أيضاً؛ فلا يحين وقت الحصاد قبل شهر آب.

ـ تُجمع محاصيل الذرة في آب وفي أيار نحصد العشب ليتم تخزينه كمؤونة للشتاء.

ـ سوف أتعلّم.

ظهر بصيص في عينيه لكنه لم يقل شيئاً. أما هي فقالت له باندفاع مفاجيء: «ليتك بقيتَ معي الليلة الماضية».

وبعد صمت طويل أجابها: «أكره تلك الغرفة».

ثم رمى حصاة في الماء وتابع يقول: «اعتادت أمي أن تنام هناك».

ـ أخبرني عن موتها. . ولماذا لم يعلموك إلى أن رجعت إلى البيت؟ . .

ـ كنت أعلم أنها لم تكن بخير. . وعندما لم أرها على الدرج في استقبالي قلت في نفسي إنها في الفراش بلا ريب، فهرعت على الدرج واندفعت بقوة إلى داخل الغرفة وأنا متلهف لرؤيتها. . .

تمزّق قلب ميريل شفقة على الولد الصغير الذي كاد قلبه ينفطر على أمه.

ـ كانت الغرفة شبه خالية ولم يكن هناك شرشف أو بطانية، وهكذا

عرفت أنها توفيت. ولم أدخل الغرفة قط؛ إلا عندما اعتقدت أن هناك من دخلها عنوة. . .

ابتسم قليلاً ليذكّرها بتلك الليلة وتابع يقول: «في أحيان أخرى، أفضّلها مظلمة».

لمست وجهه: «لا عجب أنك لا تثق بأحد، ولكن لا تفقد ثقتك بي يا جارڤيس ولا تختبيء مني».

ـ هذا كلام يسهل قوله. الرجل العاقل يبقي نفسه محتجباً.

ـ ليس هذا برجل عاقل بل هو معوق ومريض. فإذا سجن الانسان نفسه كيف يمكنه التواصل مع الآخرين؟

ـ لا أقوى على مناقشتك ولا أعلم كيف، فأنتِ بارعة باستخدام الكلمات.

ـ وتعتقد أني لا أملك سوى الكلمات؟

بعد لحظة اجابها بهدوء: «تعرفين أنّ رأيي بكِ أفضل من ذلك».

سمعت صوته كما كان يتحدث إليها الليلة الفائتة. وفجأة طغى جوّ الليلة السابقة عليهما بالرغم من سطوع الشمس. فالذكرى كانت أقوى من كل شيء. وفي عينيه ظهرت علامات الاستسلام.

وبصوت هادىء قال: «ظننتُ أنك لن ترجعي».

ـ الرجوع كان في بالي دائماً.

ـ هل ستبقين هنا الآن؟

تردّدت ثم قالت: «عليّ الرحيل مرّة ثانية لأني أتيت على وجه السرعة».

ـ بالطبع. حسناً، اعلميني متى ستذهبين.

ولّت اللحظة الحميمة؛ ورأى جارڤيس نفسه في خطر كمخلوق يطارده صياد ببندقيته فانكمش إلى داخل قوقعته الأليمة. لكنها تقدّمت خطوة في كسب ثقته. وهما عائدان إلى البيت، ظنّت ميريل أنّ باستطاعتها كسب المعركة. في بعض الأحيان، كانت تسأل نفسها عن سبب اهتمامها بالأمر. فبانتظارها حياة سعيدة على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. وهناك أناس

معجبون بها وأشياء خطّطت لتنفيذها عندما تتحكم بثروتها. لمَ لا تحذف جارڤيس من وجودها وتعود وتستمتع بحياتها؟

بكلّ بساطة لأن الحياة لم تعد كما في السابق. الحياة تعني البقاء هنا مع الرجل الذي أوجع قلبها وأسره.

ما هي الصّفات التي تميّزه عن غيره؟ لقبه؟ لا يعني لها شيئاً. أراضيه الواسعة؟ تستطيع شراء ما شاءت من الأراضي. قصره؟ يمكنها شراء مثله في أي مكان. ماذا إذن؟

هنا صمت الجدل في داخلها في مواجهة الحقيقة.

ففي حين كانت تنتقل من هنا إلى هناك من دون أن تعي ما تقوم به، وقعت على الرجل الذي بإمكانه أن يعطيها ما لم يكن لديها: حاجته إليها. وإضافت إلى ذلك حاجة الناس إليها؛ وهم جميعهم يمنحونها ودون أن يدروا شيئاً هي بحاجة إليه، ألا وهو الشعور بالراحة والرضا لعلمها بأنها تقوم بتغيير نحو الأفضل، نحو عمل الخير. لكن حاجة جارڤيس الخرساء التي تقطعّ اوصال القلب، والتي لا يمكنه التعبير عنها، هي التي آلمتها وشدتها للعودة..

استمرّ السلام الهش بينهما لبعض الوقت. ذات يوم، عاد جارڤيس إلى البيت فرأى عدداً كبيراً من العمّال يملؤون القصر بآلاتهم وأدواتهم. قالت له ميريل شارحة الوضع: «إنهم يحاولون تقدير ما نحتاج إليه للتدفئة المركزية».

وعندما عبس جارڤيس وظهرت على وجهه علامات الشك، حدّقت في عينيه وقالت له: «أنا السيدة لارن. أنا سيدة القصر وأريد تدفئة مركزية».

وافقها الرأي بكل تواضع: «لعلّك على حق».

ولم يتذمر جارڤيس حين تحوّلت الفرشة المحشوة باللفت إلى فرشة عالية جميلة الشكل، ولا حتى حين علّقت قائلة: «لم أرم قطع اللفت في القمامة. أقصد أن أقول إنها من تراث انكلترا، اليس كذلك؟ تستطيع أن تقدّمها للأمّة وتقول إنّ الملكة اليزابيت الأولى كانت تنام عليها».

ابتسم وقال: «لا، كانت تنام على ورق الملفوف في الجناح الشمالي لقصرها».

إلا أنّ هدنتهما بدأت تتقلقل في الأسبوع التالي عندما قال لها: «قابلت ند رايس وأصدقاءه. إنهم يتذمرون منك لأنك تملئين رؤوس زوجاتهم وبناتهم بأفكار تافهة».

انفجرت وقالت: «يا للوقاحة!».

ـ هؤلاء الرجال يديرون مزارع عائلية وهم بحاجة لكلّ مساعدة ممكنة. والنساء في هذه الأيام يصرفن كل وقتهن بحياكة الثياب.

ـ أعرف ند رايس، فهو يعتمد على نسائه للقيام بالعمل ويمضي معظم وقته في الحانة.

ـ كلام تافه. أعرفه منذ أعوام طويلة.

سألته بسخط وغضب: «ولكن ماذا تعرف عنه؟ تعرف عنه ما يريد أن تعرفه. يجب أن تحاول التكلم مع كلاري رايس وستسمع ما يفاجئك. إنّه يتذمر لأنه وجد نفسه مضطراً لتغيير نمط حياته..».

ـ ميريل. أعلم أنك تعتقدين أنك تعرفين عن الاشياء التي تتحدثين عنها ولكنك مخطئة. ليس من اللطف منك تشجيع هؤلاء النسوة على الاستخفاف بالواقع والركض خلف الأوهام.. ما هذا؟

قال هذا بعد أن سمعها تتفوه بكلمة ما. فخاطبته بحدّة: «تلفّظتُ بكلمة وقحة للغاية، وهي تنطبق مئة بالمئة على ند رايس وبدأت أعتقد أنها تنطبق عليك أنت أيضاً. ولكن بما أنك زوجي، فسأدعوك ديناصوراً قليل الإدراك لا تملك من صفات حسن التمييز وبعد النظر شيئاً».

ـ هذا كلام بلا معنى.

أجابته مهدّدة: «بل له معنى من جهتي أنا».

توقف الحديث عند هذا الحد، ولكن كان هناك مواضيع أخرى شائكة أوشكت أن تتحوّل شجاراً. في بعض الأحيان، وسائله الدفاعيه خانته؛ وأحسّت بغضبه الملتهب. وفي أحيان أخرى، شعرت وكأنه يسعى إلى

إقصائها عنه.

في نهاية شهر حزيران رحلت سارة في زيارة لآل هاملن في لونغ ايلند. وقالت ميريل: «يجب أن أذهب أنا أيضاً قريباً».

أجابها جارڤيس بتهذيب: «وهل الأمر ضروري فعلاً؟».

ـ عليّ أن أوقّع الكثير من الأوراق ولا أريد أن أعتمد على البريد. بالإضافة إلى ذلك، أريد أن أحضر افتتاح المركز الجديد لأعمال بندكت. اتصل بي اليوم. . .

قاطعها قائلاً: «إذاً عليك الذهاب بالطبع. أحسب انك مسافرة غداً».

ـ ربما؛ أردت فقط أن أخبرك. . .

ـ ولكن يا عزيزتي لستِ بحاجة لإخباري أي شيء، فأنا لا أفكر ابداً بالتدخل في شؤونك الخاصة.

سألته غاضبة: «لمَ تفعل هذا بي؟ ترانا على أحسن ما يرام وفجأة تبعدني عنك وتضع حاجزاً بيني وبينك».

ـ ربما لأنني أعرف دائماً كيف تبتعدين عن لارن بسهولة وتنسينها عندما تخونك الذاكرة.

ـ تتحدث ثانية عن الكرنفال. ظننت أننا سوّينا هذا الموضوع.

ـ صحيح أنك أنقذت الموقف بطريقة رائعة، لكنك استطعتِ القيام بذلك لأنك تمكنت من استئجار الهليكوبتر. هذا لا يعني أنك تذكّرتِ فلقد نسيت وأردتِ إخفاء نسيانك بهذه الطريقة.

ـ لم أنس لارن ولا وعدي. كلّ ما في الأمر أنني لم انتبه للتاريخ الذي سها عن بالي وغافلني؛ وهذا يحدث لأيّ كان.

ـ لا، لا يحدث إلاّ لامرأة اعتادت على تخليص نفسها من المشاكل بواسطة المال. لقد نسيتنا.

لو لم تكن مسترسلة كثيراً لانتبهت إلى الـ«نا» في كلمة نسيتنا. قالت مستفهمة: «إذاً لمَ لم تتصل بي وتذكّرني؟ لم تكن تأمل في سرّك أن أمحو الموعد من دفتر المواعيد، أليس كذلك؟».

صُدم بكلامها وأجاب: «لا أبداً، غير ممكن. لا أسمح أن يتأذى الآخرون بسبب خلافاتنا الخاصة».

ـ لمَ لم تذكّرني إذاً؟

أجابها على مضض: «لأنني أعترف أني نسيت أيضاً. صُدمت عندما اتصل بي الكاهن في ذاك الصباح».

ـ ها!

ـ تستطيعين قول ها ما طاب لكِ. لم أكن أنا الشخص الذي يتكلّون عليه. لو لم يكن باستطاعتك استئجار الهليكوبتر لبانت الحقيقة للجميع.

ـ لماذا تقف أموالي بيني وبينك دائماً؟ لو كنتَ أنت من يمتلك المال لما توقّعت مني أن أهتم للأمر.

نظرة غريبة هامت على وجهه وهو يقول: «لو كنت أملك المال، لكان يسعدني أن أقدّم لك كلّ شيء. أما في هذه الحال فكلّ الدوافع الطبيعية مكبوحة. كيف يمكنني أن أشعر أني زوجك وليس لدي ما أقدّمه لكِ؟».

ـ لكن قبول العطاء هو عطاء بحد ذاته، ألا تدرك ذلك؟

ـ كيف يمكنني أن أتقبل عطاءك وأنا أعلم أن ما تقومين به هو من أجل بندكت ستين؟

وتابع بلهجة لا تخلو من التهديد: «ألا تعتقدين أنه آن لنا أن نتحدث عن علاقتك بهذا الرجل؟».

ـ هل تقصد أنني مغرمة ببندكت؟ لقد صدقتَ كلام لاري.

ولكثرة ما هزّها الموضوع أمسكت بكتفي جارڤيس وهزّته قائلة: «الآن اسمعني جيداً وأصغ إلي. أنا لا أحبّ بندكت. أقرّ بأنني اقرضته عشرة ملايين دولار وقد أخسرها، وهذا يعني أن عقلي بحاجة إلى طبيب ليتحقق من سلامته؛ لكن هذا لا يثبت أنني مغرمة به، فهو رجل متزوج».

ـ وعلى وشك الطلاق، على ما يبدو.

ـ لن يكون هناك طلاق فهو يحب آمندا وأجد ذلك كافياً لرجوعهما.

ظهرت علامات الشك في عيني جارڤيس وسألها: «صدقاً؟».

هزّته مرّة أخرى قائلة: «نعم، صدقاً. فأنا ذاهبة إلى نيويورك لكي أسوّي الأمور».

ـ وبعد ذلك؟

نظرت إليه بعبث وهي تجيب: «يتوقف الأمر على مدى اشتياقك إلي».

وفي اللحظة التالية ضمّها بين ذراعيه بقوّة وعانقها عناقاً ملؤه الشغف. حتّى وهما في خلواتهما الليلية، لم يتكلم بوضوح عن رغبته الجامحة وغرامه.

سكنت بين ذراعيه تستمتع بعناقه.. وتستذوق تلك اللحظات الطويلة من الشغف، إنها مستعدة لصرف النظر عن الرحلة نهائياً بعد لحظة أخرى من هذه اللحظات. عندما أفلتها، كان يلهث والوهج في عينيه وهذا ما جعل فرائصها ترتعد من الإثارة؛ فقال لها لاهثاً: «هكذا سأشتاق اليكِ. إذا كنت تودّين معرفة المزيد، يجب أن تعودي إلي».

***

١٠ ـ الغَازِية الرقيقة

قالت ميريل في نفسها إنّ عودتها إلى نيويورك أمر جيد، فمبنى بندكت الحديث والفخم في الجادة الخامسة على وشك أن يجهز ليوم الافتتاح.

لكن، فيما كانت أحلام بندكت المهنية تتحقق، ظل الشعور بالتعاسة يلازمه، بل كان يزداد أكثر وأكثر. أخيراً قررت ميريل أنه آن الأوان للقيام بعمل حاسم. ذات مساء، تسلّلت إلى البناية المظلمة ومرّت أمام حارس الأمن الذي عرفها، لكنه رفع حاجبيه لدى رؤيته الشابة التي كانت برفقتها. في الطابق العلوي، وجدت بندكت منكباً على العمل وعلامات التعب الشديد بادية عليه. فخاطبها بلهجة المنهك: «أهلاً عزيزتي، كنت على وشك الخروج لأنسى همومي».

ـ أحضرتُ لك ما هو أفضل من أي دواء.

قالت هذا ودفعت رفيقتها إلى الأمام قائلة: «ها هي».

تسمّر بندكت في مكانه وارتسمت على شفتيه كلمة: «أمندا؟».

لم تنبس أمندا ببنت شفة انما وقفت تنظر إلى زوجها بعينين تعكسان خفايا قلبها. قالت لهما ميريل غاضبة ولكن بلطف: «عليكما تسوية الأمور، ولا تتحدّثا معي ثانية قبل أن تتصالحا».

في طريقها إلى الخروج، توقفت قليلاً عند الباب لتستمتع بمنظر امندا وبندكت وهما متعانقان. نزلت إلى الشارع مبتسمة واستأجرت سيارة أقلّتها إلى شقتها التي بدت خالية أكثر من أي يوم مضى.

في مساء اليوم التالي، دعاها بندكت وأمندا إلى منزلهما الذي جمعهما

www.elromancia.com

ثانية. قال بندكت: «يجب أن نحتفل بهذه المناسبة».

لفترة قصيرة تشاجر المتحابان حول أمور تافهة ثم ما لبثا أن تعانقا ضاحكين. استأذنتهما ميريل في الرحيل، فالسعادة التي تغمرهما بغاية الجمال لكنها أجّجت شعورها بالوحدة.

وفيما كانت مسترخية على أريكتها في ساعة متأخرة من تلك الليلة، أخذت تتساءل: ما الذي يفعله جارڤيس في هذه الدقيقة؟ وتتالت الأسئلة. هل يا ترى يتوق شوقاً إليها كما كان يشعر بندكت تجاه امندا؟.

في وقت من الأوقات كانت ستجيب بالنفي. أمّا الآن فهي تذكر كيف قبّلها، كما تذكر النبرة الواثقة في صوته عندما قال لها: «إذا أردتِ معرفة المزيد، يجب أن تعودي إليّ».

آه، نعم؛ فهو يشتاق إليها، ربما كما تشتاق إليه تقريباً.

في الماضي، عندما كانت حياتها مختلفة، قطعت وعداً على نفسها بأن تجعل هذا الرجل يريدها جزاء انصرافه عنها. لم تكن رغبتها فيه من ضمن الخطة التي رسمتها. لكنها كانت مراهقة في تلك الأيام.. أي لأشهر ثلاثة خلت.

أمّا الآن فحبّه أصبح كلّ شيء في حياتها وها هي تحسّ بالرغبة، بالحب، بالشوق وبالحنين. لقد حوّلها إلى انسانة أخرى ناضجة..

ليت باستطاعتها الرجوع إليه الآن! لكنها بصدد توضيب حياتها برمّتها، والتفاصيل تستلزم الكثير من الوقت. لذلك أجبرت نفسها على إتمام عملها الآن لأنها لا تريد العودة إلى نيويورك لاحقاً.

للحفلة، صمّم بندكت لميريل فستاناً قرمزياً ضيقاً للغاية مصنوعاً من قماش حريري يبرز شكل جسمها فقالت له معترضة: «إنه مكشوف من الأمام..».

أجابها بكل ثقة: «هذا هو المراد: إثارة وسموّ وهيبة».

هذا الثوب الرائع جعلها تشعر بأنها جذابة للغاية؛ فالمرأة التي ارتدته، كانت تسعى إلى إغواء رجل معين وهي سترتديه خصيصاً له عندما تعود إلى

منزلهما ثانية وتكون معه، أي الرجل الغريب الطباع والحسّاس السريع الغضب الذي استولى على قلبها، القلب الذي لم يسبق أن احتله رجل آخر.

استعداداً للسهرة الكبرى عملت ميريل على مظهرها الخارجي كثيراً، وكانت تعلم أن باستطاعتها أن تضاهي أي عارضة أزياء أخرى. عندما وصلت رأت المكان غاصاً بالناس؛ واقترب منها بندكت وامندا لاستقبالها...

كان بعض رجال الصحافة الذين يعملون لحساب مجلات الأزياء قد دُعوا للتفرّج على المبنى الجديد. فاصطحبتهم ميريل في جولة في أرجاء المبنى وهي فخورة بالصالون الفضي والأصفر وغرف الملابس الواسعة ومجموعة الثياب الفخمة الموضوعة خلف أبواب محكمة.

رقصت ميريل طوال الليل، كانت تستمتع بوقتها، لكنها بدأت تقلق عندما لاحظت أنّ ثوبها ملفت للغاية.. أخيراً توقفت عن الرقص وغادرت الحلبة لاهثة، ثم سمعت أحدهم يناديها ويقول: «ميريل، أنا سعيد لرؤيتك».

رأت أثرت هاملن: يبتسم لها؛ وبعد أن تعانقا وتبادلا التحيات سألته: «هل برندا هنا أيضاً؟».

ـ بالطبع؛ فهي لا تفوّت عليها مناسبة كهذه؛ ومعنا صديقتك سارة آشتون أيضاً. أين هي يا ترى؟.

قال هذا وهو ينظر حوله.

أجابته ميريل بسرعة: «لا عليك. أخبرني عن أحوالك».

تابعا السير معاً، وفي غضون لحظات معدودة نسيت ميريل أمر سارة.

شهدت الحفلة نجاحاً باهراً، وعند طلوع الفجر وبعد أن غادر جميع المدعوين المكان جلست تتحادث مع بندكت وآمندا بشكل جاد..

وفي مكان آخر كان جارڤيس يستقبل سارة في المطار ويقول لها وهو يعانقها: «سررت بعودتك يا عزيزتي. لنشرب الشاي».

عندما جلسا في المقهى أشار إليها بالقول: «كان من المفترض أن تبقي

هناك لمدة أطول. أعتقد أنك لم تستطيعي العيش من دوننا، أليس كذلك؟».

أجابته بصوت خافت: «بعد الذي رأيته أردتُ أن أعود إلى البيت على وجه السرعة».

ـ سارة، ما الأمر؟ يبدو وكأنك كنت تبكين.

ـ آه يا جارڤيس؛ لا أعلم كيف أخبرك.. إنه لأمر فظيع...

لم يساوره أي شك بما ستقوله، فسألها ضاحكاً: «ما الذي يمكن أن يكون بهذه الفظاعة؟».

ـ حضرتُ حفلة في نيويورك كان يقيمها بندكت ستين في المكان الذي اشترته له ميريل. هو وميريل...

ـ لا بأس يا سارة. هما صديقان ليس إلاّ... لقد شرحت لي ميريل كلّ شيء.

وضعت سارة صورتين على الطاولة من دون أن تتكلم. تلك التي تظهر ميريل تراقص بندكت وهي تنظر إلى وجهه بينما هو يضحك ويشير بيده إلى صدرها المكشوف؟ أم تلك التي يتعانقان فيها؟

أجابها جارڤيس بجمود: «فهمت. من الأفضل أن نعود إلى البيت».

نهض من مقعده وغادر المكان. أما سارة فأصيبت بخيبة أمل لأنه لم يأخذ الصورتين بل تركهما ومشى. ولكنها لم تمانع فقد اطمأنت لأنهما حققتا المراد.

ما هي إلا خمس عشرة دقيقة أخرى حتى تتصل بجارڤيس... عشر دقائق... وكطفلة صغيرة تنتظر متعة مؤجلة تريد الالتذاذ بها، راحت ميريل تراقب الساعة وتعدّ الثواني إلى أن يحين الوقت وتسمح لنفسها بالتمتع بسماع صوته. لاتصالاتهما الهاتفية طابع غير واقعي. كانا يمزحان وفي نفس الوقت يشعران بتوتّر يعزى إلى تلك المشاعر العنيفة التي تستولي على قلب كل واحد منهما.

خمس دقائق... أربع...

دقّ جرس الهاتف: «ميريل؟».

ما إن سمعت صوته حتى ابتسم كيانها كلّه وظهر فرحها في صوتها وهي تجيب: «نعم، هذا أنا».

لكن، كل شيء انقلب رأساً على عقب، وكأنّ الدنيا استحالت إلى جليد من حولها تاركة إياها ترتجف. لم تسمعه يتكلم بمثل هذه العدائية من قبل. قال لها: «وثقت بكِ، يا لغبائي! لقد وثقت بك».

ـ جارڤيس، ماذا تقول..؟

تابع كلامه وكأنها لم تتكلم: «انتبهي؛ لم أثق بك في البداية. حينئذٍ كنت أعرف مرامك ولم أكن مهتماً. هذا ما أزعجك، أليس كذلك؟ رجل لا يرغب فيك، لا تستطيعين احتمال ذلك. قرّرتِ أن تركّعيني فقط لتمتعي نفسك وتريني من هو الأقوى».

ـ لا أعرف عمّا تتكلم.

ـ بندكت ستين؛ رجل تراقصينه وأنتِ بثوب ملفت وتعانقينه أمام الكون بأسره. رأيتُ الصور. هل كنتِ تعتقدين أنها لن تصلني؟

تنهّدت قائلة: «سارة».

ـ نعم، سارة رأت ما كنت تفعلين.

ـ وصوّرت لك الأمر على هذا الشكل السيء.

ـ هل هناك أسوأ من أن تمرح زوجتي مع عشيقها على مرأى من الجميع؟

ـ هو ليس...

ـ آه، من فضلك. سمعت هذه المحاضرة وكنتِ مقنعة جداً. هكذا كنتِ دوماً كلّما أردتِ خداعي.

خيّل لها أنها تسمع أنفاسه تتقطع، وعندما تكلم ثانية كان صوته متهدّجاً وهو يقول: «كنت آخر رجل في العالم يمكنك جذبه وإقناعه ولكن هذا هو الهدف الرئيسي، أليس كذلك؟ فكلّما كانت مقاومتي أكبر كان انتصارك أعظم. يجب أن تكوني فخورة بنفسك يا ميريل لأنكِ في النهاية تمكنتِ مني حتى أني بدأت أقع في غر...».

فجأة لم يعد يستطيع متابعة الكلام.

أجابته بسرعة: «اصغي إليّ يا جارڤيس. . بندكت عاد لزوجته وأنا قمت بمصالحتهما. والحفلة كانت للاحتفال برجوعهما».

ـ حقاً! وأفترض أنّ زوجته كانت هناك تتفرّج وأنتِ تعانقينه؟

ـ نعم، كانت هناك وكانت تضحك سعيدة. . .

بدا منهكاً وهو يقول: «دعينا ننهي الموضوع يا ميريل. لقد ربحتِ وأنا أستسلم. . علّقي ما شئت من شارات النصر إذا كان الأمر بهذه الأهمية ولكن لا تعودي إلى لارن. عقدنا اتفاقاً وحافظ كلّ منا على بنوده. لنتوقف عند هذا الحدّ».

كانت ميريل تزداد غيظاً وها قد انفجر غضبها وهي تقول: «لا، تباً لك، ألف مرة. . لن أنهي ما بيننا على هذا النحو. كيف تجرؤ وتطلق الحكم علي دون أن تسمع وجهة نظري؟».

ـ تلك الصور دليل دافع. فما هو الشيء الذي يتوجب علي سماعه؟

ـ حاول الاستماع إلى الحقيقة حتى ولو كانت غير متناسبة مع أفكارك المسبقة. عرفتك دوماً رجلاً قاسياً تصدر الأحكام. ولكن اعتقدت أنه بإمكاننا أن نعثر على الحب وربما يكون الحب كافياً لتعيش مطمئناً مرتاحاً. لكنه ليس كافياً بالنسبة إليك، أليس كذلك؟ لم أكن اخدعك أو أمثّل عليك يا جارڤيس. أحبّ لارن وكنت سأحبك، ولكنك لا تريد أن تكون محبوباً. هذا هو الشيء الذي لا تستطيع تقبلّه. أنت ترفض ليس فقط الاشياء المادّية وإنما الحب أيضاً. الحب يعني المغامرة والقفز من عقلية إلى أخرى أما أنت فتجد نفسك أكثر أماناً في عالمك المشحون بالشك والذي لا يوجد فيه إلا الأشرار. وهذا ما تفضّله لأنك بهذه الطريقة تعرف ما تفكر فيه. لذلك ابق في عالمك ولا تخشَ من عودتي لأني لن أعود اليك ابداً. أنا لم أخنك وستعرف ذلك يوماً ما. عندها لا تزعج نفسك وتحاول إعلامي بذلك لاني انتهيت منك. لديّ أشياء أخرى أقوم بها في حياتي بدلاً من أن أقضي عمري وأنا أضرب رأسي بالحائط.

سمع جارڤيس صوت سماعة الهاتف تقفل بعنف على مسافة آلاف

الأميال.

ولم يتسنّ له سماع شهقاتها وبكائها المرير.

بطريقة أو بأخرى، استمّرت الحياة. ووصل العمّال إلى لارن للبدء بإمداد القصر بالتدفئة المركزية.

استحوذ عليه شعور بالكلل والتعب. ففي كلّ مكان رأى دلائل تبشر بأمل جديد لم يجرؤ يوماً أن يحلم به، وفجأة بدا دون جدوى.

حاول أن يكون منطقياً. فليس من المعقول أن يفتقدها كثيراً إلا في ما يتعلق بالقضايا التي تخص المنطقة بالطبع. . ولكن في منتصف الليل لم تكن هناك قضايا تهمّ المنطقة. حينئذٍ، كان يشعر بتعاسة طاغية لخسارتها تزيد يوماً بعد يوم ولم يكن هناك شيء يخفف من ثقلها. .

كان من الملائم لو حضرت الغداء السنوي الذي يدعو جارڤيس إليه المستأجرين وعائلاتهم، فغيابها أثار ردّات فعل أقلقت جارڤيس ولكن ليس كما توقع.

نظرت سادي إلى النسوة حولها وقالت: «نيويورك؟».

أومأن برؤوسهن، وأضافت سادي: «إنها تبيع منتوجاتنا. لقد وعدتنا بذلك».

كان جارڤيس صامتاً وحزيناً. كيف يمكنه إخبار هؤلاء الناس الطيبين أنّ ميريل خانتهم؟ ولكن سارة ستخبرهم، فهي وفيردي مدعوّان دائماً. وعند الغداء شغلت سارة نفسها ولم يستطع جارڤيس سماعها وهي تتكلّم، إلا أنه استطاع رؤية تعابير الارتباك والذهول على وجوه الآخرين. تدبّر امره وتصرّف بطريقة اوتوماتيكية. بعد الغداء دخل الجميع المكتبة لشرب القهوة. ثم نشب خلاف بين ليليان وأحد المزارعين حول خبر سمعته في الصباح. وليليان من النوع الذي لا يقهر في الجدال، فراحت تجادل بعنف وتقارع مسلية جميع الموجودين. أخيراً قال جارڤيس: «ألزاماً علينا الجدال؟ أعتقد أن ليليان على حق ولكن الخبر سيبث في نشرة الأخبار هذه الليلة».

قالت ليليان بحزم: «بل سيبث الآن على التلفزيون».

ـ حسناً؛ إذا كان هذا يرضيك سنديره الآن. فيردي أنت الأقرب إلى التلفزيون.

أدار فيردي التلفزيون وظهرت إحدى الأقنية. فجأة توقف وكأنه تجمّد وقال بلهجة غريبة: «أليست هذه ميريل؟».

نظر الجميع إلى الشاشة حيث ظهرت ميريل وهي تخطو بأناقة كعارضات الأزياء مرتدية ثوباً محبوكاً، فتعالت صيحات الهتاف إذ تعرّف عليه النسوة، وقلن بصوت واحد ينمّ عن الشعور بالانتصار: «لقد قمنا بصنع هذا الثوب».

رفع فيردي الصوت واستمع الجميع بانتباه وذهول إلى صوت المذيع يقول: «مجموعة بندكت ستين تعرض لأول مرة في نيويورك. وهنا على الممرّ تعرض نصيرته ميريل وينترز التي أصبحت الآن الليدي لارن، زياً محبوكاً ومبتكراً جداً من تصميم سكان مقاطعة لارن...».

قالت فريدا: «تخيلوا هذا! نحن نقوم بعمل مبتكر».

حاول ند رايس أن يقلّل من أهمية الأمر ولكن أصوات النساء حجبت صوته.

لم ير جارڤيس شيئاً مما يدور لأنه كان أخرس الصوت مشلول الحركة، فعيناه كانتا شاخصتين على زوجته التي راحت تتمايل بأناقة على الممرّ وعلى وجهها ابتسامة وضاءة. كانت تتحدث إلى مقدّم البرنامج وهي تشير إلى الثوب الخلاّق الرائع الذي ترتديه. فقالت كلاري: «إنها تتحدث عنا وعن عملنا. أصبحنا في عداد مصممي الأزياء الكبار والمتقدمين».

بدأ ند رايس يشن معركة دفاعية أخيرة، فواجهته كلاري قائلة: «أصمت ايها الأحمق. السلّع التي أبيعها تغطي المدفوعات المتوجبة علينا في البنك، فلمَ لا تقوم بعمل مفيد؟».

نظر إليها ند بانزعاج لكنه لزم الصمت. غابت ميريل عن الشاشة وانقلبت الكاميرا بين الجموع وسُمع صوت مقدّم البرنامج يقول: «بعد نيويورك ستعرض المجموعة في باريس وميلانو وروما ولندن. إنها جولة

طويلة تكون بمثابة شهر عسل جديد لبندكت ستين الذي سوّى خلافه مع زوجته أمندا مؤخراً. ميريل، هناك شائعة تقول بأنك لعبت دور كيوبيد. هل هذا صحيح؟».

وسُمع صوت ميريل وهي تقول: «قمت بدور بسيط لأنه إن كان هناك شخصان خلقا لبعضهما البعض فهما بندكت وأمندا فهما متحابّان ولهذا فإن عودة المياه إلى مجاريها بينهما كانت محتومة».

ثم ظهر بندكت ستين وسط الشاشة وهو يغمر امرأة يافعة وينظر إليها بوله وهيام. وإلى جانبهما ظهرت ميريل وهي تضحك وتقول لبندكت: «هيّا، قبّلها قبّلها...».

لم يعرف جارڤيس كيف انقضت فترة بعد الظهر. على العموم تصرّف على نحو جيد وابتسم.. وتجنّب الإجابة عن الأسئلة المطروحة. كان صوت ميريل يتردّد في رأسه وهي تقول: «لم أخنك. ويوماً ما ستعرف ذلك، لكن لا تزعج نفسك بإعلامي به».

أفاق من ذكراه الأليمة على صوت فيردي يخاطبه قائلاً: «قررت سارة الرحيل فجأة سبقتني إلى المركب وطلبت مني إبلاغك تحياتها».

أجابه جارڤيس وقد بدأ يفهم أموراً كثيرة: «فهمت».

وأخيراً انتهى الحفل وغادر الجميع وأصبح بمفرده تتنازعه الافكار البشعة والمريرة التي لم تترك له مكاناً للاختباء.

هرب إلى غرفته، لكنه سمع صوتاً صادراً من الرواق المتصل بغرفتيهما. وهناك رأى أحد العمّال يأخذ قياسات المكان. فخاطبه الشاب شارحاً الامر: «التدفئة المركزية».

ـ آه، نعم.

قال الشاب: «المكان ضيق هنا».

أجابه جارڤيس وهو يحاول التظاهر بأنه مهتم بالموضوع: «تستطيع أن تشق الحائط الداخلي قليلاً. فلا شك أن سماكته لا تتعدى القدم».

في اليوم التالي بدأ العامل بحفر الحائط، وعلى الفور أدرك أن سماكته لم

تكن بمقدار قدم بل حوالى عشرة انشات. واستمر بالحفر ولكن سرعان ما ظهرت له الناحية الأخرى فتابع عمله إلى أن أزاح حجراً كبيراً إلى الخارج. أمسك بطاريته ونظر إلى الداخل. وما رآه جعله يتسمّر في مكانه لوقت طويل قبل أن يذهب بسرعة بحثاً عن كبير العمّال.

* * *

في أحلامها، كثيراً ما رأت ميريل نفسها تفتح الباب لتجده واقفاً هناك لذا عندما سمعت دقة على الباب شبيهة بتلك الطرقات التي كانت تسمعها في أحلامها طارت نحو الباب تفتحه من دون أن تستخدم المنظار. كانت مستعدّة لتقول إنها مخطئة وإنه إذا كان نادماً وآسفاً فهي كذلك.

لكن في الخارج رأت فقط رجلاً غريباً محاطاً بالصناديق والامتعة.. لقد أرسل جارڤيس جميع أمتعتها من لارن. ومنذ تلك المرة لم تعد تفتح الباب بتلقائية وعفوية.

لقد أقفلت سماعة الهاتف في وجهه في لحظة غضب، ولكنها لم تندم قط على ذلك... مع أنها أملت لو يحدث شيء آخر. الآن لم يعد هناك من سبيل للتراجع؛ لقد لعبت وخسرت.. والتشبث بأحلام وهمية زائفة لا يعود عليها إلاّ بالحزن والغمّ. ومع توالي الأيام الموحشة الكئيبة الباعثة على اليأس، بذلت كلّ جهدها وعملت كلّ ما بوسعها لتصبح مستقلّة الرأي.

لا تنكر أنها أسعدت الناس الذين تحبهم وحسّنت أوضاعهم المعيشية، لكنها لم تُسعد جارڤيس ولم تجعل حياته أفضل. كان بوسعها أن تتنشله وتجتذبه، كي يشاركها السعادة، لكنها لم تفعل. سوف تتقدّم به السّنون ويكبر حتى يشيخ؛ وسيتزوج سارة.. وما إن خطرت ببالها هذه الفكرة حتى كادت تسارع إلى أول طائرة لتعود إليه، لكنها أكرهت نفسها على الامتناع عن القيام بأي شيء. فقد اختار طريقه..

عرض أزياء بندكت كان ناجحاً جداً وصاحبته ضجة إعلامية كبرى. وقريباً سيحين الوقت لانتقال العرض إلى باريس، وقرّرت ميريل الذهاب إلى هناك أيضاً فهي لم تذهب إلى باريس منذ فترة طويلة.

استيقظت باكراً ذات صباح على صوت جرس الباب المتواصل. فلفّت الوشاح على كتفيها ودنت من الباب بحذر وأدارت المكبّر قائلة: «من؟».

- جارڤيس.

تيبّست في مكانها؛ وراحت تتسارع في رأسها أفكار شتّى، ثم ما لبث أن قال بهدوء: «ميريل، دعيني أدخل من فضلك».

فتحت الباب في الحال.

بدا لها في حال سيئة جداً؛ وقالت لنفسها: كم تغيّر! فلون وجهه كان معتماً ضارباً إلى الرمادي، وكأن الإعياء والتوتّر قد استنزفاه. لكن التغيير الفعلي كمن في التردّد والخوف في عينيه وكأنما تلاشى كلّ ما لديه من ثقة.

رجعت إلى الوراء كي يمر أمامها وكانت تحاول لملمة مشاعرها. كان جارڤيس محقّاً في أمرٍ ما: فمن الأفضل أن تبقى بعيدة وعلى حذر، لكنها لم تقو على منع قلبها من التوق إليه. شعرت بأنه يجد صعوبة في الكلام. ولكن متى وجد أي سهولة في أي شيء؟

أرادت أن تمنحه بعض الوقت ليستجمع قواه، فقالت: «يبدو أن الرحلة كانت شاقة عليك. سآتيك ببعض القهوة».

فيما كانت القهوة على النار، أسرعت إلى غرفتها لترتدي بنطالاً وسترة، ثم عادت وقدّمت القهوة ووضعتها على طاولة صغيرة قرب الاريكة، ونظرت حولها بسرعة بحثاً عنه. رأته ينظر إلى كوّة في الحائط حيث انتصبت حقائبها التي أرسلها في أثرها. لقد ألقتها هناك ولم يطاوعها قلبها على لمسها.

التفت إليها فمست نظرته شغاف قلبها.. رأت عينيه بلا حول أو قوة.. ثم سمعته يقول: «جئت لأقول كم أنا آسف».

تناهى إلى مسمعها صوت في داخلها، صوت قلبها يستحثها ويقول: ألقي نفسك في أحضانه...

وأجاب صوت آخر، صوت الحذر الذي تعلّمته بمرارة: لا؛ ولِمَ يحدث كلّ هذا الآن؟

الكلمة الوحيدة التي تمكنت من لفظها هي: «لماذا؟».

ـ عرفت الحقيقة. لقد عرضت أزياء ستين على التلفزيون مع الإشارة إلى زوجته وكيف تمّ الوفاق بينهما على يديك.

ـ الآن فهمت.

بارقة الأمل الضعيفة خبت فجارڤيس يتصرف وفق ما يمليه عليه ضميره فيما يتعلق بالحقائق.

قال: «وجب علي الوثوق بكِ، فلطالما شعرت بذلك في أعماقي».

أجابته وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيها: «لا، لم تفعل. أنت تقول هذا الآن لأنه يسهل عليك... عفواً...».

قالت ذلك حين رأته يجفل لكلامها، وتابعت تقول: «لم أقصد أن أكون قاسية أو فظة، ولكن كلّ ما في الأمر...».

ـ أعرف ما تعنين. يكون الأمر سهلاً عندما نمتلك الحقائق، لكن عندما لا نمتلكها ولا نحظى ببراهين ملموسة، نحتاج إلى اللجوء إلى الثقة العمياء. وأنا لم أعاملك على هذا الأساس، أليس كذلك؟

ـ جارڤيس، من فضلك.. لا بأس. يسرني أنك تعرف الحقيقة الآن وإنه للطف منك أن تقطع كلّ هذه المسافة لتقول لي هذا بنفسك.

ـ لديّ سبب آخر. هناك شيء يجب أن تعرفيه، وسينشر قريباً في الصحف؛ إلاّ أني أردت أن تسمعيه مني، فأنت الشخص الوحيد التي سيفهم الأمور على حقيقتها.

اتجهت مجدداً إلى الاريكة وأشارت إليه أن يجلس على كرسيّ قبالتها بينما صبّت القهوة. سألته: «ماذا جرى؟».

ـ لقد عثر العمال على شيء ما بالصدفة في ذلك الممر الذي يصل غرفتك بغرفتي. ذكرتِ لي ذات يوم أن هذا الممر ضيق وصغير بشكل غريب؛ معك حق. هناك جدار شكلي للتمويه وغرفة صغيرة خلفه. لن تصدقي ماذا وجدنا فيها.

ـ ماذا؟

ـ مرغريت.

حملقت ميريل وقالت: «ولكنها... فرّت بعيداً».

ـ هذا ما كنّا نعتقده لأنها اختفت فجأة، كما اختفى الوكيل وخادمتها، الا أنهم لبثوا هناك لمدة ستمئة سنة. لا....

قالها بسرعة عندما رآها ترتعد. وتابع يقول: «إنها لمفارقة عجيبة ألا يكون الأمر كريهاً بحدّ ذاته. بعد مرور كل هذا الوقت غدوا حفنة من التراب، بينما ظلّت الثياب على حالها.. كانت تتقلّد عقد اللؤلؤ البادي في اللوحة».

ـ ولكن كيف حصل هذا؟

ـ يبدو أنّ غايلز لم يكن الزوج الحزين على فقدان زوجته كما تصورّنا جميعنا. أراد أن يستأثر بجميع أموالها فقتلها، كما قتل الوكيل والخادمة كي يقنع الجميع بقصته؛ ثم بنى الجدار عليهم ونشر قصة هجرانها له. وليجعل الأمر مقنعاً أكثر، وضع لآلىء آل ڤندان هناك أيضاً.. ربما لأنه كان المكان الوحيد الذي لن يستطيع أحد إيجادها فيه. لا بدّ أنه وضع اللآلىء هناك كي يسترجعها لاحقاً عندما تهدأ الجلبة، لكن الموت عاجله ولم يعلم أحد بوجودها.

تمتمت ميريل: «يا لمرغريت المسكينة!».

ـ أجل، إنّها مسكينة بالفعل. هاري يعتقد أنها لم تكن مغرمة بالوكيل، بل هو أمر ملفّق، مجرّد كذبة لتعليل نبأ اختفائها. لعلّها كانت مخلصة ووفية لزوجها، ولكنه أراد أن يأخذ لا أن يعطي.

سكت جارڤيس قليلاً قبل أن يضيف: «أخشى أن تكون هذه إحدى صفات عائلة لارن».

ابتسامة باهتة ارتسمت على شفتيها وهي تقول: «عجباً! لم أسمعك تتكلم بمثل هذه الشاعرية والوجدانية من قبل!».

ـ إنّه أمر مخيف ومقلق. كرمك أغاظني وامتعضت لأني اعتقدتك متطفّلة. خلتُ أني أحمي إرثي من غازية طامعة بأملاكي؛ لكنني في الواقع

كنت في منتهى الانانية، فكلّ ما قمت به، كالتواصل مع الآخرين وحرصك على التعرّف إليهم فرداً فرداً وإيجاد سوق للسّلع الصوفية، يعود إلى رغبتك في العطاء وفي أن تكوني واحدة منّا. وأنا رفضتكِ بسبب..

وبصوت مرتعش أضاف: «أعتقد أنني كنت أغار منك.. لقد استحوذتِ على ما حسبتهُ من حقي أنا».

ـ لم يكن هناك ما تغار منه يا جارڤيس. لم أرغب في حرمانك من أي شيء. لقد وقعت في حب لارن منذ اللحظة الأولى.

ـ فقط في حب لارن؟

تنهدت وقالت: «لا. وقعتُ في حبك ولكنه بات شيئاً من الماضي؛ لم أستطع إفهامك. عشنا بعض الأوقات...».

ابتسمت وذكريات معيّنة تعبر أفق خيالها.

وتابعت قائلة: «... لكنك كنت دوماً تحاربني».

ـ أريد أن أعوّض عن أعمالي السالفة وأطلب الصفح.

كان يتكلم برقة ووضع يده على يدها، وهو يناشدها تقريباً. الا أنّها لم تكن بحاجة لسماع تلك الكلمات.

ـ تريد أن تعوّض عما فات وتطلب الصفح؟ يبدو وكأنّ هذا خارج نطاق علاقة العمل التي تربطنا. ومع ذلك، أظن أنّ ما جمعنا هو علاقة العمل تلك، أليس كذلك؟

أجفل وهو يقول: «هدفي الوحيد هو إعادة الأمور إلى نصابها فيما بيننا».

ـ ولكن ما هو الصواب في علاقتنا كي تعيده إلى نصابه؟

ـ الأمر يختلف الآن. هل تذكرين عندما قلتُ لكِ ذات مرّة إنني لا أستطيع أن أشعر بأنني متزوج منك فعلياً طالما لا أملك شيئاً لإعطائك إيّاه؟ أخبرتك الآن بأنني عثرت على المجوهرات وقيمتها لا تقدّر بثمن. لو كانت بحوزتي من قبل...

قاطعته وأكملت جملته بسخرية ومرارة: «لما كنت بحاجة إلي».

ـ ليس هذا ما أريد قوله.

ـ لو كانت بحوزتك من قبل، لما تقابلنا أصلاً.

ـ لكنّا تقابلنا بطريقة أو بأخرى، فهذا مقدّر لنا. ولو كانت الجواهر الثمينة بين يدي من قبل لتجرأت على النظر في وجهك مباشرة..

نظرت إلى وجهه تبحث عن شيء هي بأمس الحاجة إليه، ثم ما لبثت أن قالت بحزن: «آه! يا جارڤيس. ليتك أحببتني فعلاً في أيّ وقت.. غنياً كنتَ أو فقيراً! حسناً أصبحت الآن غنياً وتعتقد أن ذلك يغيّر الوضع. هل أُخبرك شيئاً يذهلك عن الرجال الاغنياء؟ هم مبتذلون ومن السهل العثور على أمثالهم وليس لهم في نظري قيمة تذكر. لم أعرف سوى هذا النوع من الرجال ولا أحبّهم من أجل مالهم ولا أمنحهم ما منحتك إياه!».

طقطقت أصابعها ثم أضافت: «كنت مختلفاً عنهم ومكانتك أعظم من مكانتهم. قيمتك كانت في كونك رجلاً بكلّ ما في الكلمة من معنى. لم تكن تافهاً وسطحياً مثلهم. أردت أن أعطيك لا أن أسيطر عليك.. أردت أن أقوم بشيء من أجلك وأن أشعر بأنني أحدثت تغييراً إيجابياً في حياتك. ولو أحببتني قليلاً فقط، لعرفتَ كيف تأخذ من دون أن تجرح كبرياءك، وهذا كلّ ما كنت أبغيه. لكن لأنك لم تكن تملك مالاً...».

وتلفظت بهذه الكلمة بكره وازدراء، وتابعت تقول: «... لم تعط نفسك حقّ قدرها كما لم تعطني حق قدري. والآن بعدما أصبح لديك المال الوفير تظن أنه يصلح جميع الأمور؟».

نهض جارڤيس بسرعة وضرب كفاً بكف قائلاً: «لا أستطيع أن أفهمك وأنت تتحدثين بهذا الأسلوب. كلّ ما اعتقدته أنّ العوائق التي كانت بيننا قد زالت».

ـ آه، نعم! بندكت كان عائقاً والمال كان عائقاً آخر. والآن زالا. أستطيع أن أفهم ذلك.

ـ أليس هذا كافياً؟

ـ بالطبع ليس كافياً. أردت منك أن تحبني متخطياً العقبات والعوائق.

تمتم قائلاً: «لا أعرف كيف أقول لك كم أحبكِ. ظننت أنك تعلمين ذلك».

ـ بعض الأشياء يجب أن تقال ولكن في الوقت المناسب. وبالنسبة لنا لن يكون الوقت مناسباً أبداً.

أمسك يدها وقال بيأس: «نستطيع أن نجعله مناسباً إذا عدتِ معي إلى المنزل».

أجابته بألم شديد: «لا أستطيع! فات الأوان. ليتك تدرك كم كان بودي أن يكون منزلك منزلي لكنك لم تسمح لي بالدخول إلى حيث تكمن الأهمية الفعلية...».

أجاب وهو يئن: «أعلم أنها غلطتي، لكن الأمور تغيرت...».

ـ نعم الأمور.. وليس أنت، ليرتعد الغزاة! أنت فعلاً تجعلني أرتعد لأنني أعلم أنه عليّ أن ارتقب وأتوقع الأسوأ.

لمست وجهه بيديها وتابعت تقول: «ستبقى هذه الفكرة في رأسي. هذا إذا لم تبق في رأسك أيضاً. سأظلّ دائماً الغازية».

أجابها بكآبة: «جئت لأطلب منكِ فرصة ثانية. ولكن كيف لي أن أطلب منك أن تحبيني؟ لم أقم بشيء لأستحق حبك، أليس كذلك؟».

ـ جارڤيس؟ أنت لا تستحق الحب أو تعمل للحصول عليه. فهو يأتي من تلقاء ذاته وعليك أن تتلقاه.

ناشدها قائلاً: «تعالي معي إلى البيت وعلّميني».

هزّت رأسها وقالت: «هذا ما كنت أعتقد. في ذلك الوقت كنت متعجرفة واعتقدت أن بإمكاني وبصفتي ميريل وينترز أن أفعل أي شيء. لكنك بيّنت لي أن المال كان كلّ ما لديّ ولم يكن كافياً. دعنا نعمل بما قلته ولنترك الأمر عند هذا الحدّ. لم نخلق لبعضنا بعض».

لم يكن بوسعه إقناعها بأي طريقة. فإذا لم تجد هي الكلمات المناسبة، فكيف باستطاعته هو إيجادها؟ لم يكن بإمكانه سوى الوقوف هناك صامتاً، فيما كانت تخرج خاتم أمّه من إصبعها لتناوله إياه. بعد ذلك، لم يكن بوسعه

أن يفعل أي شيء سوى الخروج والرحيل.

***

رغم براعته في تصميم الأزياء لم يكن بندكت يتقن فن التنظيم. فكان على الموظفين وزوجته وميريل بذل جهود كبيرة للتحضير للسفر إلى باريس بعد أسبوع. وقد سرّت ميريل بالقيام بهذه التحضيرات لأنها شغلتها عن التفكير. وصلوا إلى المطار في وقت مبكر جداً بالنسبة إلى موعد إقلاع الطائرة. وتعجبت ميريل لأن بندكت وأمندا ألحّا عليها في الذهاب إلى المطار قبل الموعد المطلوب بساعة، لكنها عملت حسب إرادتهما فلم يعد يهمّها أي شيء.

حين وقفوا في صفّ مراجعة جوازات السفر لدقائق معدودة، قالت ميريل: «لقد أخطأنا في الوقوف هنا، فهذه الطائرة ليست متوجهة إلى باريس».

ألحّت أمندا بالقول: «بل أنتِ واقفة في المكان المناسب.. طائرتك تقلع بعد ساعة، ليس إلى باريس بل إلى مانشستر. التاسعة ليلاً. هاك تذكرة السفر».

ـ كلا، اسمعاني، أعلم أنكما تريدان لي الخير والسعادة ولكن...

أجابها بندكت بحزم: «اصمتي يا ميريل. نحن الآن نردّ لك الجميل».

ـ ولكن لا يمكننا أنا وجارڤيس...

ـ لا تتابعي.. طيلة الأسبوع الفائت كنا نستمع اليك وأنت تتكلمين تفاهات أنك لا تستطيعين العيش مع جارڤيس وهذا يكفي. تقولين إنه لن يعرف كيف يتقبل حبك؛ إذن علّميه ايتها المرأة الغبية. وهذه مهمتك فقومي بها. أوافقك الرأي أنّ جارڤيس ليس بارعاً في التعبير عن مشاعره لكنك أنت الآن أيضاً لست بارعة بهذا الشأن. جاء إليك وطلب منك أن تمسكي بيده وأن تفهمي مشاعره التي لا يعرف كيف يعبّر عنها. لكنك ارتعبت وأحجمت عن مساعدته. كنت أعتقد أنك شجاعة لكنك استسلمت ما إن تأزّمت الأمور. لم تسعفيه في شيء.

انعقد لسانها من الذهول ولم تقل شيئاً. فتابع يقول: «حصلتِ على كل شيء في حياتك بسهولة. حسناً لكن هذا الأمر لن يكون هيناً. لقد بذلتِ جهداً قوياً حتى الآن ولكن هذا الجهد لا يساوي شيئاً مقابل الجهد الذي عليك أن تبذليه من أجل زواجك من الآن فصاعداً. أعلم أنه ليس بالرجل السهل لكنه تخلّى عن كبريائه من أجلك. والآن أتى دورك أنت. تستطيعين القيام بهذا الأمر وستتدبران أموركما شرط ألا تكوني جبانة وتتهربي ثانية».

وصلوا إلى مقدمة الصّف وانتزعت امندا تذكرة وجواز السفر من بين أصابع ميريل المخدّرة وسلّمتهما إلى المسؤول. بعد دقيقة رافقاها إلى بوابة المسافرين. قالت لها أمندا: «سنبقى هنا لنتأكد من أنك لن تخرجي من هذا الاتجاه ثانية».

أجابتها ميريل وفي عينيها إشراقة فرح: «لا داعي لذلك. أشكركما من كلّ قلبي».

كلّ شيء كان مألوفاً بشكل رائع بما في ذلك الطقس المخيف الذي كان في استقبالها. وصلت وفي يدها حقيبة يد فقط؛ فخرجت من المطار بسرعة ولوّحت بيدها تستوقف سيارة أجرة.

استغرقت الرحلة ثلاث ساعات كان المطر خلالها ينهمر كالسياط على السيارة. وعندما اقتربا من لارن سألها السائق: «كيف ستتمكنين من العبور؟ المياه مرتفعة جداً ولا أستطيع أن أقطع الممرّ المرتفع في السيارة».

أجابته وعلامات الفرح بادية على وجهها: «سيأتي أحدهم وينقلني بمركبه».

ـ هذا إذا استطعتِ الحصول على أحد المراكب. أعتقد أن الجميع يبحثون عن ذلك الرجل المفقود.

أجابته بحدة: «من؟».

ـ لا أدري. أحد اللوردات أو ما شابه ذلك، أبحر ليلة أمس ولم يعد.

أجهشت ميريل بالبكاء وقالت: «يا إلهي إنه جارڤيس».

انتزعت هاتفها الخلوي من الحقيبة واتصلت بفيردي. فأجابها بصوت

مقتضب ينمّ عن توتّره وقلقه. سألته: «فيردي، ما الذي حصل؟ هل هو جارڤيس؟».

ـ نعم لسوء الحظ. الجميع يبحثون عنه. أنا أيضاً خرجت بزورقي ولكنه صغير لمثل هذه المهمة. لقد استأجرت الآن مركباً كبير مزوداً بمحرّك.

فصرخت في الحال: «سآتي اليك».

ـ سألاقيك عند الممر.

كان هناك بانتظارها في مركب أبيض كبير صنع خصيصاً للحالات الطارئة التي تتطلّب السرعة والقوة. أدخل ميريل إلى المركب بسرعة وانطلقا.

أجبرت نفسها على التكلم بهدوء مع أنها رغبت في البكاء، فقالت له: «أخبرني كل شيء».

ـ اعتاد جارڤيس قضاء وقته وحده مؤخراً فهو إما يركب حصاناً أو يبحر في يخته الصغير. فهو بحّار ماهر. لكنه هذا الصباح أبحر في ساعة مبكرة ثم هبّت عاصفة هوجاء. أُخطِر حارس الشاطىء بالأمر وهناك أسطول بحري يبحث عنه.

كادت تصرخ عندما قالت: «ولكن بعد كلّ هذا الوقت...».

حاول فيردي أن يبدو واثقاً مما يقول وطمأنها قائلاً: «لقد تمّ العثور على الكثير من المفقودين بعد ساعات وكانوا بحالة جيدة».

قالت وقد استبدّ بها الخوف: «لكنه في المياه الباردة منذ ساعات».

لم يجبها إذ لم يكن لديه ما يقوله.. وراح ينعم النظر في البحر الرمادي وصولاً إلى الأفق البعيد غير أنه أيقن بخوف أن النور بدأ يتلاشى.

يقال إن طمرتك المياه للمرة الثالثة تقضي عليك. لكن جارڤيس طمرته المياه لمرات عدة لم يقوَ على عدّها ولم يزل يكافح ليصل إلى سطح الماء. علم أن معركته مع الرياح خاسرة. فلم يكن هناك سوى البحر العاصف الذي يحيط به من كل حدب وصوب.

كانت الغلطة غلطته لأنه كان مستهتراً يتصرّف بشكل آلي، يدير المركب بجسده لا بروحه. فروحه كانت هائمة في مكان آخر تبحث عنها، لكنها لم تكن هناك. لقد اختفت كما كان يترتب عليها ذلك دوماً. وقد عرف ذلك الآن. وبينما هو يتبعها في قلبه شرد وتفاجأ بالريح القوية التي قلبت مركبه رأساً على عقب. نزل إلى مسافات عميقة جداً لكنه ناضل ووصل إلى سطح الماء وتمكّن من الإمساك بالمركب. بيد أنّه لم يستطع قلبه مجدداً، وكان عليه أن يتمسك به وهو ينظر حوله أملاً في رؤية مركب آخر. لم يكن هناك شيء لا في الافق البعيد ولا في أي اتجاه. وكان وقع المطر يشتد والرياح تعلو، ومع مضي الساعات شعر بالأمواج تجرفه إلى أعماق البحر وتلاشى أمله.

غالبه البرد وخدّره وجعل حركته ضعيفة وبدأ يشعر بالنعاس وهذا يمثّل خطراً كبيراً على حياته لأنه أرخى قبضته عن المركب.. عاد فحاول مستميتاً الإمساك به، لكن المركب ابتعد شيئاً فشيئاً إلى أن فات الأوان. كان وحيداً والظلمة تلتفّ حوله، وها هو يغرق ثانية ويستخدم ما أمكن من قواه الخائرة كي يصعد ثانية إلى السطح. علم أنه إن لم يتم العثور عليه قريباً فلن يبقى على قيد الحياة تلك الليلة؛ ومع كل دقيقة كان يزداد ضعفاً ووهناً وكلّ نزلة إلى الأسفل كانت تشعره بأنها الأخيرة.

هدرت المياه في أذنيه، وعندما صعد ثانية، هبّت العاصفة عليه وعلم حينئذٍ أنه يهلوس لأنه سمع العاصفة تصرخ بصوت عال: «جارڤيس، جارڤيس!».

تردّد الصوت مراراً وتكراراً. سمعه وهو ينزلق تحت الأمواج للمرّة الأخيرة. وصله الصوت وهو تحت الماء وجعله يقاوم ويصعد وهو يلهث وأنفاسه تتصاعد وتهبط بسرعة. ووجد أن نظره يهلوس أيضاً. فمن عساها تكون هذه المرأة الخارجة من عمق العاصفة والتي تناديه بذعر؟.. إن ما يسمعه وهم مطلق: «جارڤيس! يا الهي؛ جارڤيس، أرجوك».

كانت تنظر هنا وهناك.. ومدّت له ذراعيها بحركة يائسة وهي تصرخ: «جارڤيس، حبيبي!».

لم يدرِ كيف استطاع الرّد عليها لأن الكلام تجمّد في حلقه، لكن بطريقة أو بأخرى استطاع أن يتحرر من الصمت ويطلق صوتاً مخنوقاً، ومع أن صوته كان ضعيفاً للغاية سمعته بالرغم من هدير العاصفة أيضاً ونادته مجدداً. في تلك اللحظة أطلّ القمر من خلف غيمة من الغيوم وأغرق المحيط بأشعته الفضية. ومن ذلك البحر الفضي أطلّت المرأة بشعرها الطويل الذي تلوّحه الريح ويداها ممدودتان نحوه. في حالته البائسة لم يعد يميّز بين ما هو واقع وما هو وهم. علم فقط أنه إذا استطاع الوصول إليها فسوف يكون بمأمن.

تلامست أيديهما ثم أفلت منها وغاب تحت المياه مجدداً وهو يسمع صراخها بألم: «لا! لا! لا!».

قام بمحاولة أخيرة يائسة وشعر بأصابعها تمسك أصابعه بكل ما أوتيت من قوة، فتمسّك بها فيما كانت تسحبه إلى خارج المياه التي كانت تشده إلى الأسفل.

عندما وقع في قعر المركب، أدرك بشكل غير واضح أن هناك رجلاً ساعدها على سحبه إلى المركب. لكنه لم يرَ أحداً سواها، وكان يعلم أنه إذا ظلّ ينظر إليها فسينجو ويكون بأمان. أما إذا اختفت مرة ثانية..

قالت له بصوت مختنق: «حبيبي! تمسك بي، لقد وجدتك».

أجابها وهي تغمره بذراعيها: «ظننت أنكِ لن تعودي أبداً».

أقسمت له قائلة: «لن أرحل من هنا ثانية».

ناداهما فيردي قائلاً: «سأتصل بالإسعاف حالما نصل إلى الشاطىء».

أجابه جارڤيس: «لا، لا أريد سيارة اسعاف».

ثم نظر إلى ميريل وتابع قائلاً: «دعيني أذهب إلى البيت معكِ فقط».

أومأت برأسها موافقة.. وعلمت أنه سيمضي وقت طويل قبل أن يصبحا وحيدين، ولكن يكفي أنهما وجدا بعضهما بعضاً على هذا النحو الذي لم يسبق له مثيل.

تحلّت ميريل بالصبر ما إن وصلا إلى اليابسة، حيث امتدت أيادٍ كثيرة

لمساعدتهم في النزول إلى الشاطىء.. كان عليها تجفيف وتدفئة جارڤيس وإيوائه إلى الفراش، كما كان عليها التعبير عن الامتنان والشكر لفيردي، غير أن فيردي سرعان ما قال لها: «لا تهتمي لشأني. اذهبي إليه».

أعطته قبلة ملؤها الامتنان وهرعت إلى غرفة جارڤيس. كان مستلقياً في الفراش شاحب اللون ومنهكاً وعيناه شاخصتان إلى الباب الذي لا بدّ أن تدخل منه ميريل. رفع ذراعيه نحوها على الفور، فذهبت إليه وتعانقا بصمت تأكيداً على الثقة والحب بينهما. أخيراً قال لها بصوت أجش: «لا أخشى من الموت، وما أخشاه هو أن أموت من دون أن أخبرك من أنتِ بالنسبة إلي، فهذا لا يُحتمل».

ـ هس يا حبيبي، يا حبيبي، سامحني.

أجابها بصوت مشبوب العاطفة: «ليس هناك ما أسامحك عليه».

ـ اتهمتك بالتكبّر ولكن كبريائي كانت أفظع. أحببتك غير أني طلبت منك الرحيل لأنه كان يشقّ علي أن أحبك. لولاي لما كنتَ اليوم في ذلك المركب. لو متّ...

أطبق فمها بأصابعه وقال: «لا، لن نفكر في هذا الموضوع ثانية. لقد أتيتِ إلي من عمق العاصفة، والليلة قمتِ بالشيء نفسه، وهذه هي البداية الجديدة لنا».

أشار إلى الحائط المواجه لسريره ولاحظت أن صورة الكلين زالت وحلّت مكانها صورة مرغريت.

ـ علّقتها هناك، لأنها ذكّرتني بك عندما ظننت أنني فقدتك.

ـ لن تفقدني أبداً. عدت لأبقى في بيتي. احتفظ بي في قلبك فهو ملاذي الوحيد الذي أنشد.

وبدلاً من أن يجيبها بالكلمات مدّ يده إلى الدرج بجانب السرير وأخرج الخاتم الذي اعطاها إياه من قبل والذي أرجعته له بكبرياء ومرارة. وضع الخاتم الماسي في إصبعها كما كان وطبع قبلة على يدها. ثم همس في أذنها: «لا تنزعيه مرة ثانية».

ـ لن أفعل ذلك أبداً.

ـ هناك شيء آخر أريد أن أريك إياه.

ثم مدّ يده إلى الدرج مرة أخرى وأخرج منه علبة مسطّحة في داخلها لآلىء لم ترَ ميريل لها مثيلاً. رفع جارڤيس اللآلىء ببطء فتلألأت تحت ضوء الغرفة وبدت كبيرة متناسقة، وكان لونها ورديا فاتحاً. تنفست بصعوبة وقالت: «لم أر في حياتي شيئاً جميلاً كهذه اللآلىء».

ثم راودتها فكرة رهيبة، فقالت له: «جارڤيس، كم تساوي؟».

فهم ما تعنيه وأجابها على الفور: «تساوي ما يكفي لدفع كلّ ما كان عليّ من ديون. لكن هذا لا يهم. في نيويورك قلتِ لي إنّ الرجال الأغنياء كثر وما كان لهم في نفسك قيمة وقلتِ أيضاً إنك كنتِ أكثر سعادة عندما كنت فقيراً وكان باستطاعتك إعطائي المال. لا أستوعب هذا كلياً، ولكن متى استوعبتك وفهمتك؟ هل يا ترى سأفهمك يوماً؟ ولكن قولي تلك الكلمة وسألقي بهذه اللآلىء في النار حالاً».

سألته بتعجب: «هل تفعل ذلك من أجلي؟».

ـ أفعل أي شيء من أجلك.

ورأت في عينيه صحة ما يقول، فوضعت يدها على يده بسرعة وقالت: «لا، هناك طريقة أفضل».

أومأ برأسه موافقاً وقال: «هذا ما اعتقدتُه أيضاً».

وبرقّة ألبسها عقد اللؤلؤ وقال بقناعة ورضا: «الآن أصبح العقد لك وها أنا رجل فقير مرة أخرى».

ثم طرأ تغيير على ملامح وجهه ووضع يديه على وجهها بلطف قائلاً: «غير أني لن أكون فقيراً البتة. لم أكن أعلم.. لم أدرك...».

ـ ولا أنا كذلك. أما الآن فلدينا كل شيء ولا شيء آخر مهم.

فجأة بادرها بالقول: «ضمّيني إليك. أنا لا أشعر بالأمان من دونك».

تمدّدت إلى جانبه على السرير وضمّته إلى قلبها وهمست: «هل تشعر بالأمان الآن؟».

ـ دائماً، طالما أنا في قلبك. لقد أتيتِ في الوقت المناسب لتنقذيني.

تهدّج صوتها وهي تقول: «نعم؛ لو تأخرنا بضع دقائق أخرى...».

ـ لا أقصد في البحر. أقصد كيف كنتُ سأغدو لو لم تأتي إلى هنا في تلك الليلة.

قالت له وهي تحاول ألا يتعكر مزاجه، وهذا ما يتوجّب عليها العمل عليه لسنين طويلة: «أنا أيضاً لا أعرف كيف كنتُ سأغدو لو لم آتِ إلى لارن. كنت سيئة بقدر ما أنت حسبتني. أنت أيضاً أنقذتني».

لكنه لم يكن ليدعها تقول هذا. فطبيعته شرسة عنيفة لا تقبل الحلول الوسط. وكما كان شديداً في مقاومته لها فسيكون حازماً ومخلصاً في حبه. لقد اعتبرها عدواً والآن هي في عينيه مثال الكمال، وهكذا ستبقى إلى الأبد.

***

www.romancia.com مرمورية